



القيامة المهمشين

محمد بن زخرفة

رواية



مكتبة
مجلس التعاون الخليجي
البيروت

2025

العمل الفئران بجائزة مجمع الجزائر للغة العربية سنة 2025

****** تخضع أي أسماء تجارية وأسماء منتجات مذكورة في هذا الكتاب إلى علامات تجارية أو ملكية فكرية أو حماية براءة اختراع، وهي علامات تجارية أو ملكية فكرية مسجلة لأصحابها المعنيين أو وصف المنتج وما إلى ذلك...، حتى في حالة عدم وضع علامة معينة في هذا العمل، لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يقصد بذلك أن هذه الأسماء قد تعتبر غير مقيدة فيما يتعلق بتشريعات حماية الملكية الفكرية والعلامات التجارية، وبالتالي يمكن لأي شخص استخدامها.

****** تصميم غلاف الكتاب: **عمزة سعادي** - المجمع الجزائري للغة العربية/2026.

****** الإيداع القانوني: جانفي 2026.

ISBN : 978-9969-9672-0-3

****** حقوق الطبع محفوظة

© محمد بن زخروفة

© منشورات المجمع الجزائري للغة العربية 2026.

06 شارع العقيد محمد بوقرة - الأبيار- الجزائر.

****** الوصف الببليوغرافي

بن زخروفة، محمد

قيامه المهمشين- رواية/محمد بن زخروفة. - الجزائر: منشورات المجمع

الجزائري للغة العربية، 2026. - 178 ص؛ 16×24 سم.

ردمك: 978 - 9969 - 9672 - 0 - 3

الكلمات الدالة: الروايات العربية - المقاومة الاجتماعية - الأدب الجزائري.

ديوي العشري: 813.7

إهداء

إلى كلّ مهتمّ يحمل ذهنه نوراً

إلى كلّ مهتمّ يلعن الظلام

قراءة في رواية "قيامه المهمشين"

لمحمد بن زخروفة

تأسس رواية "قيامه المهمشين" على معالجة التهميش بوصفه بنية مركبة، تتجاوز المعنى الاقتصادي الضيق، لتغدو حالة اجتماعية ونفسية ووجودية، تتجذر في الذاكرة والهوية والمكان واللغة. فالمهمش في الرواية ليس مجرد ذات معوزة، بل هو كائن فائض عن نظام اجتماعي لا يعترف إلا بمن ينسجم مع إيقاعه، فيما تُلقى الذوات المكسورة على تخوم المدينة والأسرة والمؤسسة، حيث لا خلاص يقترح لها إلا عبر "قيامه" رمزية لا دينية، تتجلى في الانفجار الداخلي حين يبلغ القهر مداه الأقصى.

إن القيامه هنا ليست وعدًا بالنجاة، بل لحظة انكشاف للذات المقهورة، قد تأتي في صورة تمرد أو وعي أو عنف أو جنون، وهو ما يجعل العنوان عتبة دلالية محملة بإحياء الانهيار والانبعاث معا، دون أن تُحدّد له صيغة واحدة أو نهاية تطمئن القارئ.

يتوزع هذا الموضوع المركزي إلى قضايا تتشابك وتتعلق لتصنع صورة الهامش الجزائري بوصفه مصيرا جماعيا، لا حادثة فردية. **فالنبد الاجتماعي** يظهر بوضوح في حالة صبرينة، التي تُطرّد من مركز الطفولة المسعفة عند بلوغها السن القانونية، لتجد نفسها أمام سقوط وجودي قسري يحوّل الرعاية المؤقتة إلى حكم بالإقصاء الدائم. **والعنف بنوعيه المعنوي والمادي** يتجسد في شخصية رزقي وأسرته خلال العشرية السوداء،

حيث لا يكون الإرهاب حدثا عابرا، بل جرحا عميقا يشوّه الوعي ويحوّل الذاكرة إلى عبء وجودي لا يمكن التخلص منه. ويبلغ الخذلان الأسري ذروته في حالة أحمد، الذي لا يُقصى من المدينة أو المؤسسة، بل من البيت نفسه، بيت الأب الذي يُفترَض أن يكون مكان الانتماء الأول، ليغدو داخله مراقبا صامتا، مسلوبا من حقه الرمزي في المكان. أما الانشطار النفسي، فيتجلّى بأقصى صورته في الحاج منور، حيث يتحوّل القهر المترام إلى خطاب تطهيري عدمي، يرى العالم شبكة من "نقاط سوداء" يجب سحقها، لتدخل الرواية بذلك في تخوم سؤال الشر: هل هو نتاج المجتمع الآثم أم بذرة كامنة في الإنسان تنتظر شروط انفجارها؟

إن الرواية لا تقدم شخصياتها بوصفها نماذج جاهزة، بل بوصفها ذواتٍ تتشكل سرديا عبر الذاكرة والجروح واللغة والمرايا المحتملة للمصير. فرزقي شخصية محورية تمثّل المهمّش الواعي؛ فهو مثقّف جامعي لم تنقذه الشهادة من السقوط، لأنه معطوبٌ بذاكرة المجزرة العائلية، وفقد الأب والأم والإخوة، فيعيش وحدة قاسية لا يجد معها ملاذا إلا في التأمّل واللغة والاستبطان، لتغدو شخصيته متشككة عبر السرد أكثر من الحدث، وعبر الوعي اللغوي أكثر من الفعل الاجتماعي. وصبرينة، من جهة، تجسّد هشاشة الأنثى في مجتمع لا يمنح فرصة ثانية، لكنها، رغم سقوطها القسري، تحتفظ ببذرة أمل خافتة وإيمان داخليّ بالنجاة، ما يجعلها على حافة القيامة دون أن تعبرها بالكامل. أما أحمد، فهو هامش بارد لم ينفجر بعد؛ انسحابٌ صامتٌ يجد في الحاج منور مرآة محتملة لمصيره، وهو ما يمنحه وظيفة دلالية

تتجاوز حضوره السردي المباشر. والحاج منور نفسه شخصية مزدوجة ومنشطرة بين "منور الإنسان" الطبيب السابق، الأخ المذنب، العاشق للحمام، و"منور الآخر" الصوت الداخلي العدمي الذي يرى التطهير في السحق، ليشكل بذلك أحد أكثر النماذج الروائية تعقيدا في السرد الجزائري المعاصر، لأنه لا يطرح مأساة الهامش فقط، بل مأساة الوعي الذي يتحول إلى مشروع هدم حين لا يجد قناة أخلاقية لتصريف قهره. وفي مقابل هذه الشخصيات المأزومة، تأتي نانا الحاجة خيرة، التي قد تبدو شخصية ثانوية من حيث حجم الحضور، لكنها مركزية من حيث الرمز؛ ضمير شعبي وأمّ بديلة تمثل الملاذ الأخلاقي الوحيد في عالم متفسخ، لتؤكد الرواية بذلك أن الهامش لا يواجه بالهامش، بل بالضمير الإنساني الذي ينجو من التلوث.

أما على مستوى البناء، فتختار الرواية التعدد الصوتي لتكريس رؤيتها النقدية؛ فهي رواية بوليفونية بامتياز، تتعدد فيها الأصوات الرواية بين رزقي وصبرينة وأحمد والحاج منور ونانا الحاجة خيرة، دون أن يهيمن صوت واحد يُملئ حقيقة التهميش، بل تُترك الحقيقة موزعة بين الرواة، وهو ما يمنح النص بعدا تداوليا ضمنيا يؤكد أن التهميش ليس حالة ذات واحدة، بل بنية مجتمع كامل يتجلى القهر داخله بأشكال مختلفة ومتفاوتة. ويتعلق هذا التعدد مع بناء تفتيتي يعكس التشظي النفسي للشخصيات، فلا حبكة خطية تقليدية تُنتج سردا تصاعديا، بل مقاطع معنونة تتراوح بين الخذلان والعزلة واللحظة المدمرة، تتخللها ارتدادات زمنية إلى الطفولة والعشرية السوداء، وتداخل بين الحاضر والهלוسة، وهو تفتيت لا يُقرأ

بوصفه خيارا جماليا فحسب، بل بوصفه محاكاة بنيوية لانبهار الهوية داخل الذوات المقصية. وفي هذا الإطار، لا يكون المكان خلفية محايدة، بل فاعلا سرديا يشارك في إنتاج القهر؛ فالمدينة فضاء طارد وعدائي وآلي بلا روح، بينما المقبرة، على مفارقتها للحياة، أكثر صدقا ودفئا، لأن زيف المدينة أقسى من حقيقة الموت. أما البيت، فلا يأتي مأوى للسكينة، بل ساحة صراع رمزي يعيد إنتاج الإقصاء داخل الجدران نفسها، كما في بيت أحمد وبيت رزقي، لتؤكد الرواية بذلك أن الهامش ليس خارج المركز فقط، بل داخل ما يُفترض أنه مركز الأمان الأول.

وتخدم اللغة هذا البناء النفسي والرؤيوي معا؛ فهي لغة شاعرية مكثفة تميل إلى الجمل الطويلة المتدفقة، والاستعارات المشتقة من العتمة والانكسار والنور والهوامش، غير خادشة للحياء، مع توظيف محدود ومدروس للدارجة في الحوار، لا بقصد التزيين، بل لإضفاء واقعية اجتماعية تُوازن بين كثافة الداخل الشعري وقسوة الخارج الواقعي. ورغم ما يمكن أن يُؤخذ على النص من إفراط في الشاعرية أحيانا على حساب الإيقاع السردي، إلا أن هذا المأخذ لا يخرج عن كونه ملاحظة على مستوى التلثي، لا على مستوى الانساق الداخلي، لأن اللغة المختارة لا تدعي تمثيل الواقع بقدر ما تمثل وعي الشخصيات به، وهو ما يجعل الشاعرية جزءا من جرح السرد نفسه، لا انحرافا عنه.

وفي تقديرنا، أن رواية محمد بن زخرفة تنجح في أن تكون رواية احتجاج صامت تُدين المجتمع لا بالشعار، بل بالكشف، وتضيف إلى السرد

الجزائري المعاصر معالجةً للهامش لا بوصفه موقعا جغرافيا أو طبقة اجتماعية، بل قدرا وجوديا تتنازعه الذاكرة والشر والحذلان واللغة والمكان. إنها رواية تتطلب قارئاً صبورا يلاحق السرد الذهني المتشظي، لكنها تُكافئه في النهاية بنص إنساني عميق لا يقدم إجابات جاهزة، بل يضع الإصبع على الجرح، ويترك للقارئ أن يشهد القيامة الممكنة داخل نفسه قبل أن يشهدها داخل شخصيات الرواية، لتظل بذلك عملا سرديا يُحتفى به نقديا، ويُستثمر معرفيا وثقافيا، لأنه يُعلّمنا أن اللغة العالية ليست دائما تعبيرا عن الامتلاء، بل قد تكون التعبير الأكثر صدقا عن الفراغ حين يتراكم القهر حتى يصير الكلام نفسه شكلا من أشكال النجاة المؤقتة، أو الانهيار الجميل.

الأستاذ الشريف مريعي
رئيس المجمع الجزائري للغة العربية
ديسمبر 2025

"إنّ الذي لا يستطيع النظر وراءه، إلى المكان الذي جاء

منه، سوف لن يصل إلى وجهته أبداً"

غوسيه ريزالو.

الفصل الأول

التفرّق

أن تكون على الهامش، فهذا لا يعني بالمطلق أن قيمتك ضائعة، بل يعني أنّ هناك فكريا ما تشكّله الأغلبية لا يتوافق مع قيمتك الأحاديّة.

أنا الآن أبصركم جميعا دون حواجز الخوف والقلق، أتم الآن لا تمثّلون الهامش، إنّما لديكم فسحة الحياة كلّها، حان الوقت كي تتبادل الأدوار مع أولئك... لكن بشكل مختلف، نحن من عاش الهامش بكلّ تفاصيله المؤلمة قبل المضيّ في كسب الرّعاية المطلقة، لنا ما نستحق من دور، ولهم الخوف والمذلة والخزي... حياة أدنى من الهامش.

رزقي

(حادث مأساوي)

كان صوت محمود درويش يرافقني عبر نافذة حجرتي التي تقابل باب
مؤسسة تعليمية، كنت في تمامه كئيب مع قصيدة أعيشها وتعيشني، من دون
أن أعلم من خلق أولاً أنا أم هي... تتلّي واقعا وأمّثلها نصاً.

"كم أنت حُرٌّ في إدارة شأنك الشخصي
في هذا الزحام بلا رقيب منك أو

من قارئ! فاصنع بنفسك ما تشاء، اخلع
قيصك أو حذاءك إن أردت، فأنت

منسيٌّ وحُرٌّ في خيالك، ليس لاسمك
أو لوجهك ههنا عملاً ضروريّ تكون

كما تكون.... فلا صديق ولا عدوّ
هنا يراقب ذكرياتك"

وكأني نقطة سوداء تشوّه وجه عالم مبيضّ، أو هكذا يراني كل من
اقتحمت واقعه ولو مليمترا واحدا، نقطة سوداء في حياته، هذه السوداوية
التي أصبحت أستلذّها، بل وأفتش في كلّ مكان عن ظروف مواتية
لتعشّش داخلي ومن حولي، أنا أعيش في سلبية مفتوحة على هوة

الظلام، لا نور لا فرح لا حبل أمل يرفعني ناحية الضوء، لن أقول إنني شخص كئيب، ما دمت لم أحقق شرط معرفة غير هذا الشعور، كل ما يحيط بي غارق في الفوضى، أنظمة متآزمة، مشاريع بعيدة كل البعد عن الانضباط والتسيير العقلاني، هكذا نحن الآن نعيش عشوائية عارمة، لا أحد يملك سلطة التصحيح، كل يجارب لأجل الاستقواء على غيره، ولا أحد يفكر في المصلحة العامة.

ستلاحظ ذلك بتركيز طبيعي، كما أرى الآن خارج هذه الحجرة، الناس يذرعون الشوارع بقلق، السيارات تندفع سريعا دون انتباه لأرجل وأجساد المازة... البارحة... البارحة فقط، تابعت حادثا مباشرا لسيارة وهي تنزلق بعنف يرافقتها صوت مخيف للمكابح، سيّدة يرتفع بدنها الثخين عاليا ثم يرتطم بالزجاج الأمامي للسيارة، ويتدحرج كبرميل ثم يقع على الأرض بلا حراك، بقيت متحجّرا بمكاني أتابع الزحمة العظيمة التي تسبّب فيها الحادث، سيارات على طول الطريق تزجر بأبواقها قلقة من غير أن يتدخل أحد، وصلت سيارة إسعاف عبر طريق جانبي، خرج رجال الحماية مسرعين، رفعوا الجسد على المحمل ثم انصرفوا به...، وبقي الدور على رجال الشرطة الذين - كعادتهم - وصلوا متأخرين.

بعد أكثر من نصف ساعة، زالت آثار الحادث وعادت حركة

المُردور على الطّريق إلى طبيعتها، وكانّ شيئاً لم يكن، رأيت في ذلك الجسد المصدوم نفسي، صاحبتة على الهامش تصارع ألم الصّدمة، وأنا على الهامش أصارع ألم الوحدة، ثمّ أظننا نتشارك في ألم داخليّ أكثر فطاعة.

حَمّنت لو كان الجسد المصدوم له قيمة نظاميّة، أكان صاحب السّيارة سيغادر بمركبته بعد سحب الوثائق منه؟ فلتكن تلك القيمة النظاميّة على قرابة بمسؤول، أو هي ضمن حيزّ أرسنقراطيّ ينعم بامتيازات معروفة، كيف سيكون وضع السائق ساعتها؟

نحن لا يتعبنا الحزن لأننا على استعداد دائم له، الخوف على من يصدمه الحزن مشوّها مساره الحيّاتيّ.

أنا رجل وحيد، فزت بهذه الشقّة بطريقة مريبة ربّها لي القدر، شقّة بوسط مدينة تيزي، يحلم بها كلّ من يرى في المدينة حياة لطيفة تعينه على قضاء أمورهِ، لكنني أولاً وأخيراً لم أجد فيها غير الفراغ والملل...، غرفتان ومطبخ وحمام، جدران ركبها العفن، زوايا كثيرة لا تفرح بالتور إلا نادراً، أحبّ هذه الحجرّة، فضلاً على أنّها تستقبل إشراقة الشّمس كلّ صباح، فهي تحمل رائحة والدي، شيء من روحه يربّت على صدري كلّ يوم قبل أن أنام، سكينّة لذيذة حدّ الابهتاج أجدها أثناء نومي تجتاح جسدي وتتوغّل عميقاً بروحي.

أنا كائن غارق في التأمل، مصاب بدهشة شوّهت ملامح الرّوح
الطفولية التي كانت تسكنني، لديّ كل أدوات الانتقام، لكنني لا أودّ أن
أفقدني سريعاً، تمرّ انفعالاتي كأني حدث إجراميّ جانبيّ ومعزول، أريد
بطريقة ما أن يرى العالم أثر التشوّه الذي أصابني، أن نعيد تجربة الصدمة
معاً، من غير أن أتحمّل أذى لم أسع إليه.

تذكرت نانا الحاجة خيرة، الخديمة كما يطيب للناس مناداتها، تعالج
الخصومات وتمنح للبيوت بركة، تحفظ الأسرار وترشد الحيارى بحكمتها
المشهوده، كانت جارتنا بيتنا القديم بالقرية، ولعلّه الاستثناء الوحيد بحياة
عائلي، أن حظيت بتلك الجيرة الطيبة، الخديمة المرأة التي استحوذت على
كلّ ما تبقى من أملاكنا بمحبّة، حوش واسع وأربع غرف مسقوفة بالقرميد،
وسبع شجرات زيتون، حمار وثلاثة خرفان ونعجتان وعدد من الجراء...،
الوحيدة التي تغدق عليّ بمحبّة ولا تردّ لي حاجة، باب حظّ لم يصدّ بعد،
لولاها لكنت أتسوّّل الطّعام بالطّرقات ولما هنتت لحظة هنا، تحوّل إليّ ما
تكسبه عائدات الصّروع وثمار الأشجار ، تنصحني دوماً أن أتجنّب
الإسراف، وتخبرني أنّ المدينة حسناء فاجرة، تأخذ من جيوبكم مقابل لذة
واهمة، ربح شحيح ورهان دائم على الخسارة. تزن نانا رجال القرية قيمة
ومهابة، بجسد هزيل مقوّس ويدين متشابكتين خلف ظهرها، تنتقل من

باب إلى آخر، وتنسلّ من بين الأيدي الحاضنة بمحبّة عجيبة، الكلّ يغدق عليها، ثمّ ما تلبث أن تمتدّ يدها الطويلة إلى جيوب الفقراء.

الكائن الوحيد الذي أشعر معه أنّي موجود، تفهم جيّدًا أنّي شخص هارب من الذكريات، وكوني لا أزورها إلاّ طمعا في ملء جيبى ومعدتي. قبل ثلاث وثلاثين سنة، كانت رحلة العمر سنتهي بي طفلا لم يعرف من العالم إلاّ حدود قريته ومسلكا ضيقا نحو هذا البيت، لولا أن خطفتني نانا (الخدمية) من الموت، نجوت لأكبر على الفراغ والبؤس والوحدة، شاهدت نانا تبكي مرّة واحدة فقط، لم أكن أتخيّل أنّ لعينها منافذ دمع حار، كان ذلك في مساء صيفي، استيقظت من قيلولة قصيرة دون أن أجد نانا بجواري، لم أكن قد برئت من صدمة الفقد بعد، هرعت إلى حوشنا أصرخ وأمسح جدران البيت بكفيّ، حالة من الانكسار أستشعر ألمها إلى اليوم، ولا تزال صورة نانا وهي تحضني بقلق راسخة بذهني " خّليني نموت يا نانا، علاه سلكتيني؟ علاه تخّليني تتعدّب من غير ماما وبابا وسلمى وسالم؟"، أقسم أنّي أحسست ساعتها بجسد نانا صلبا كالحديد من حولي، يشتدّ سخونة وتقلّصا حول مفاصلي الضّعيفة إلى أن قطع صراخي وارثنى جسدي، لم أكن أعلم معنى أن يفقد الكائن وعيه، كما لم أكن أعلم أنّ دموع نانا المنهمرة خلف كفّها ستحييني مجدّدا وهي تفرع جهتي، تلملت في

حجرها مشدوها كوعل مزّقت جسده مصيدة، رفعتني إلى ثغرها تمسح
شفتيها الناعمتين على خدي "بالسّلامة عليك يا بنيّ الله يلعن
الغدارين..."، من يومها وأنا أستشعرني أحبّ الخلق إلى قلب ناّ العظيمة.

صبرينة

(خذلان)

ثمانية عشر عاما وسبعة أيام قضيتها بمركز الطّفولة المسعفة بقرية بوخالفة بولاية تيزي وزّو، فتاة جميلة مثلي، هادئة وحاملة، ترمي خارج المركز رفقة ثلاثة شبان! انتظرت بشغف كبير أن أطفئ شمعة ميلاد جديد بجمرة اعتيادية من قبل عمّال الإدارة والمعلّمين والأطفال، لكن ما حدث يومها صادق على كلّ الإشاعات التي كانت تهمس في الأذان بخوف وقلق، هكذا بتصديق قبلي وبرودة تقبلنا الأمر، كانت الإشاعة مثل إبرة دقيقة تغرز بجذر في جسد تملكه الرّعاش، حالة تستوجب عقلا حكيما، هكذا كي تذوب الصّدمة تدريجيّا، ونكون حينها قد تفادينا ضربة آنية قاسية وموجعة، طردنا بمحبّة، وبآلاف من الأعذار وأنهار من الدّموع وبراكين من الغيظ وعناق مكهرب... سحب مدير المركز من تحت إبطه مستندات الخروج تحمل دليلا يرشد إلى عناوين مفترضة لأقرباء كل واحد منّا، ألغاز من المسمّيات لا نعلم هدفا واضحا منها، لو كُنّا قطعاً مهمّة من نسب هؤلاء، لما أهملنا أوّل الأمر.

صهيب، زكرياء، وصبرينة، خذوا حذرکم، الحياة خارج المركز أكثر صخباً، شغلوا منبهات وساوسکم، التوايا هناك لا تؤخذ بالمسلّمات... قال المشرف هذا ثمّ امتصّت حشرة الغيظ صوته، ولم يبق لنا غير الاستجابة لحركة يده الممدودة أمامنا تطلب ممّا الخروج، وقتئذٍ خطف نظري من زاوية بعيدة خيال المشرفة نور وهي تغطّي نصف وجهها بيديها.

- الفراق من قطع العذاب الروحي، روجي تتعدّب لفراقك، ثمّ إنّها ستشتدّ عذاباً مضاعفاً إذا قابلتك ونحن على مشارف الفراق، هذا رقمي مدوّن بآخر الصّفحة يمكنك الاتصال بي...

هذا آخر ما كتبت بالسّجل الذي كان فضاء واسعاً لحوار روحيّ، فضاء كاسر لقيود الكلام، كان صمتاً ممتدّاً لأفكارنا، في آخر ليلة سلّم لي السّجل عبر إحدى بنات المركز، كان سنداً مهمّاً وسبيلاً واضحاً في فكّ كثير من العقد...

ذرنا آخر طريق مؤدّ إلى بوّابة المركز الرئيسة، ثمّ مشينا سريعاً كي نقطع المشهد عن قلوبنا المرتجفة.

ليس سهلاً أن تلفظك بطن الأمومة مرتّين إلى العراء، مشهد قاس ومرعب، من أعلى جبل بوخالفه، كُنّا نشاهد العمارات والمباني كمكعبات

حديدية ملتهبة، ونحن كطائرات ورقية هشة آتية من فوق الغيم، لا تجد مكانا لطيفا لهبوطها.

لم ننفق نحن الثلاثة المغدورين برصاص الفراق على شيء، لكن...
ثمّة التزام داخلي يربط أرواحنا، ظلّت أعناقنا معقوفة ناحية الأسفل، ننسلّ من كبة وجع طرفها مربوط بالمركز، لم نلتفت إلى الخلف، هروبا من كرة الوجع، نسير من غير هدى نلتمس نور الحظّ، كنت أسمع وقع الخطوات وصخبها، وهي تسحب تارة على جانبي وتارة من خلفي، ثمّ تتناقلت، ثمّ تباطأت...، استدردت خلفي فلم أجد غير صهيب يتبعني في ضياع، مسحت بنظري المكان، تطلّعت ناحية الطريق بقلق، سألت بدهشة عن زكريّاء، فأنى صوت صهيب كئيبا.

- انعطف ناحية اليمين وسط الغابة.

- أين يقصد؟

- لم أسأله..

صمت لحظة ثم استدار وتابع:

- جمعنا هذا ممزّق لا محالة يا صبرينة، لا فائدة من البقاء معا، التطف التي خلفت بعجل وشتات، تمنح أجسادا ضالّة ومنبوذة، لك طريقك ولي

طريقي، أتمنى أن أسمع أخباراً طيبة عنك، الوداع...

وقفت بساقين أحسست رجفتها تحفران أسفل رجلي، سأدفن ...
كم تمنيت لحظة أن يذوب جسدي بالتراب، أن أتلاشى أن أذوب كأبي
قطعة مشكلة أصابها حرّ الهوان، لم أجد ما يسند عظامي على الوقوف، أنا
إنسان.. أنا أنثى جميلة ومتفهمة، أحلامي تسكن أبعد بكثير من لحظات
الانهيار كهذه، نزل ذهني أسفل رجلي وتمركز ضاغظاً مقدّمة أصابعي، في
نقطة ما من الصّياح الحالك، كلّ الحواس ستتجرّد من الاستشعار،
رجلاي على وعي بمسلك مشطوب من ذاكرتي، لكن لا قيادة إلاّ بدافع
منها...

كنت كلّما أسقطتني فكرة، مدّت إليّ فكرة أخرى ذراعها لتنتشلني
من الهلاك، أنا موقنة أنّ الله مرشد الحيارى سيدفعني إلى باب آمن آخر
المطاف، ولو ولجت قبله ألف باب خاطئ.

أنا على موعد قريب كي أكتشف ضياعي في مدينة كبيرة، الشمس
تنحدر بثقل ناحية المغيّب، لم أرها من قبل بهذا الحجم الهائل، انتهت إلى
الطريق المعبّد أمامي، هناك طريق فرعي مهترئ، تعلوه لافتة حديدية أكل
الصدأ حوافها، تميل ميلاً بائناً، مكتوب وسطها مقبرة بحروف باهتة مغبّشة
ومتداخلة مع لون الصّدأ، نسيان مرعب للمكان، هناك قبر ظاهر ما زالت

تربته نديّة، وكأنّ هذه المقبرة مكان للتخلّص من فضلات المدينة، لا أحد فكّر في إصلاح الأعطاب، ولا انتزاع سياج التّباتات الشّائكة المحيطة بالقبور، ثمّ ما يضمّ هذا المكان سور طويّ مضروب يمتدّ مسافة طويلة، نهر من القبور المبعثرة، كم من خلق يسكن هنا بهذه الأرض الموحشة؟

نأيت عن المقبرة بضع أمتار، هناك مرتفع صخريّ مفرّ لاعتلائه، يتّصل مباشرة بمنحدر تنطلق منه أشرطة من التّباتات والأشجار، وأفضل ما يميّز هذه النقطة، أنّها عين قابضة على مساحة المدينة، أراها كلّها، كورقة لامعة عائمة على سطح الماء، لا يمكنني أن أميّز حركة أيّ كائن بشريّ هناك، لكنّها أصوات هائلة تصدر من أماكن متفرّقة، هذه المدينة آلة في خدمة هؤلاء البشر، لكنهم يحسنون السّباحة والغوص بها، وتحريكها حسب مفهومهم، فماذا عنيّ أنا؟ نقطة دخيلة ستغرق على شواطئها، إحساس غريب، تملكني رهاب من فكرة تواجدي داخل هذا الحيز، بمساحة كفيّ يمكنني أن أمسح عن ناظري هذا المكان المريب، أن أقتلعها، أن أمحوها من الوجود، فكرة ثقيلة، كره مفاجئ يشتدّ، ثمّ لا مجال للتراجع، مصير حتميّ سيربطني بالمدينة قريبا، وأقابل خلقا غريبا عنيّ، وأماكن وأفكارا جديدة...

تحاشيت الغوص بالمكان أكثر وأنا على هذا الإرهاق القاتل، تجمّنت

منعطفًا صغيرًا، فيما دفعني المنحدر وهو اجس المكان إلى الإسراع، وكأني شرغوف يقابل مستنقعًا كبيرًا، يفكر كيف ستكون قفزته الأولى حال صار ضفدعًا، هزني بعد صمت مطبق صوت سيارة آت من بعيد، شعرت برعدة خاطفة ضربت جمجمتي، أطبقت قدمي إلى بعضهما وحضنت المستند بقوة، وكأني أحمل سرًا خطيرًا أخشى أن ينكشف، صار الصوت بطيئًا وأنا أسمع طقطقة العجلات بقربي، فتحت عيني على صوت المنبه، كانت العجلة الأمامية للسيارة على بعد ربع متر من قدمي، أدت رأسي بزاوية حادة، بينما انثق صوت الرجل خلف زجاج باب السيارة التازل.

- تاكسي... تاكسي، هل تريدن وسط المدينة؟

هزرت رأسي بالنفي من غير أن أنبس بحرف واحد.

تحركت السيارة قليلًا، ثم توقفت وعاد الصوت مجددًا.

- هل تحتاجين إلى مساعدة، هل أوصلك إلى أقرب مشفى؟

كانت لحظة فارقة، شعرت بوخز يحاكي نبض قلبي.

خمنت في أيّ لو كنت فتاة عادية تطلب النزول وسط المدينة،

فالأكد ستفرح بظنّها إن صادفت سيارة تاكسي بهذا المكان النائي.

تحركت باضطراب، وكأني للتو فككت جسدي من رباط عصي،
لوحث بيدي ناحية المرآة العاكسة منبهة السائق بالتوقف، ارتفع صوت
المكابح، ثم عكست السيارة سيرها إلى الخلف، مدّ السائق يده وفتح
الباب الخلفي..

- على بركة الله، ضعي الحقيبة جنبك، لا يليق بالمرء أن يسافر على
مرض...

صمت للحظة منتظرا ردّي، وحينما أبطأت، تابع قائلاً:

- على كلّ حال يبدو أنّه سفر مرغم، شحوبك واضح، الدّنيا بنت الكلب،
حينما تكفت همومها على الواحد، لا يرضيها إلاّ أن تراه هالكا عن بيّنة.

تركت السائق يلوك ما أراد من أفكار بينه وبين نفسه، فيما كان
يخطف من فينة إلى أخرى نظراته نحوي بالمرآة العاكسة، وحينما يئس من
ردّي، رفع صوت المذياع على أغنية شعبية بدا أنّه مهووس بكلماتها من
خلال جسده الذي صار يتمايل يمينا وشمالا.

ثمّ انقطع ضوء عينيه ناحيتي وهو يراني منشغلة بما في يدي،
فتحت المذكّرة على صفحتها الأولى، أين كان التاريخ محدداً قبل ثلاث
سنوات، 14 مارس 2033، حيث تقابل لقبانا واسمانا، ابتسمت بغیظ،
كيف تصير الأمور بهذا الدافع المغربي، ثمّ تنقلب فجأة إلى ذكرى تقطر

وجعا، تدهت إلى شقّ وسط المذكرة، سحبت الصفحات نحو اليمين وإذا
بظرف مثبت بإحكام عبر شريط لاصق وسط الصفحة.
رفعت الظرف ببطء إلى الأعلى، ثمّ مزقت طرفه، حصرت نظري
داخله، وإذ به أوراق نقدية ملفوفة بورقة، لم يسعني حماسي المنطقي كي
أكون شغوفة بقراءة الورقة ولا بمعرفة قيمة المبلغ، أغلقت المذكرة وأعدتها إلى
الحقيبة، التزمت الصمت، بينما السائق غارق في دندنته.

أحمد

(عزلة حتمية)

كان الوقت ليلاً، وكان الظلام كثيفاً، على ضوء شمعة أكل لهيها معظمها، رحت أدير مجسماً ورقياً على شكل طائر بين أصابعي وأتأمله بدهشة وكأنه خلق بغير يديّ، خزرت عينيّ بجوافه الدقيقة، ثم رحت أخاطب نفسي (بارع أنت في حيك التفاصيل التافهة) ثم أدنيت المجسم من الشمعة... ، في حين نسيت سلطة النار على الورق، قفزت من مكاني مكرراً أضمر رؤوس أصابعي داخل في وقد جرّ لهيب النار عليها، راقبت تلاشي آخر خيوط الدخان على المجسم المحترق فوق الطاولة، ثم ضغطت بكفي على ربع الشمعة وقفزت مباشرة إلى سريري وأنا أفرك الشمع الدائب.

- اللعنة على البلدية، اتسع فسادها لينغص ليل المواطن البسيط، قلت هذا بخلاي، ثم تذكرت أنّ انقطاع الكهرباء كان بسبب انقضاء مهلة تسديد الفاتورة، مسحت على وجهي ثم تيمّنت وأنا أتوسّد ذراعي وأحدق بخيوط الضوء المنبعثة من شبّاك الغرفة، غرفتي التي تقع بالطابق الثاني من منزل العائلة، حصّتي من الإرث الذي تركه والدي، كنت في البداية أحوز على ردهة تفضي إلى ثلاث غرف وحمّام وساحة صغيرة، ثم بعد تدخل

عمي الأكبر تقلّصت حصّتي إلى غرفة واحدة وحمّام مشترك، بينما بيعت البقيّة إلى أخي الأكبر من قبل عمي، لا يمكن أن أنسى وقفته الحاسمة بيتنا بعد ثلاثة أشهر من وفاة والدي، بيت الوراثة من حقّ أبنائي كذلك، هكذا صرّح بحزم وثقة وهو يمسح جدران الغرف وأرضية الساحة بعينين ثاقبتين، قال هذا وهو يتيمّن شيخا يعتمر عمامة ويقلّب بين أصابعه خرزات مسبحة، أمّ حديثه ثمّ ترك مجال الحديث للشيخ الذي لقّبه بالإمام وأخذ في سرد أحكام الميراث وشرائعه، وحينما فصلّ في تجزئة البيت، رفع عمي كفه وأشار إلى أخي الأكبر جلال قائلاً:

- هناك حلّ قد يرضي أبناء أخي، أشهد بحضور الإمام أن أبيع حصّة أبنائي لمن يدفع خلال هذا الأسبوع قبل عودتي إلى فرنسا، انفضّ المجلس أخيراً، ثمّ علمت في الغد أنّ أخي صاحب المقاولات قد أخذ نصيب أبناء عمي الثلاثة مقابل مبلغ لم يعلن عنه، جرت الأمور بغرابة جعلتني أشكّك في أصل الحكاية، كيف يعود عمي من غربته بعد خمس سنوات مطالباً بإرث يتمثّل في غرف نهشت الرطوبة أغلب جدرانها، ثمّ كيف لرجل يتقلّب في الثراء أن ينازع أبناء أخيه البسطاء في إرث آيل للسقوط، شككت في البداية أن تكون مجرّد تمثيلية من أخي جلال حتى يستحوذ على غالبية

المسكن، ثم تخلّيت عن شكوكي وبنيت على فرضية متداولة في بيئتنا حول طباع المهاجرين وإصابتهم بداء الجشع.

احتلّ بعد ذلك أخي جلال وأبناءؤه الأربعة الطابق الأرضي، بينما منحت غرفة لأختي صفيّة بالطابق الثاني، وأغلقت الغرفة الثالثة من غير سبب محدّد من قبل أخي، ثمّ أغلقت الغرفة الثانية بعد زواج أختي، وبقيت لي مساحة ضيّقة للتنقل بين غرفتي والحمام، وبعد فترة رحبت هدهوء المسكن من غير أن تتاح لي غرفه المتبقية، كان حديثا مقتضبا من أخي، احتوتني على إثره فرحة عارمة تلاشت خلال اليوم الثاني، وهكذا هي قلوب البشر تتقلّب بأحاديث مسمومة..

- بعد أن وصلني تقرير من قبل الشركة يفيد بضرورة التوجّه إلى الجنوب، الآن أنا مضطرّ للسفر، وبالتالي الحصول على مسكن مؤقت هناك، قد تطول مدّة سفري أو تقصر، الله أعلم... لك كلّ هذا البيت، حافظ عليه...

ثمّ في اليوم الموالي استيقظت على أصوات أشغال هدم وبناء في نفس الوقت، رفعت بصري ناحية الشباك وإذ بموادّ البناء موزّعة قرب السور الخلفي، فركت عيني ثمّ قمت مسرعا وفتحت باب الغرفة، قابلني رجل قد غطّى الباب الذي يفضي إلى السّلامم بالآجرّ ويستعدّ لتليسيها،

استندار ناحيتي ثم كسر نظرتَه وتابَع عمله وكأنه صاحب البيت...، ثم في السّاحة الصّغيرة لمحت فجوة منتصف السّور تطلّ على الطّريق بطول مترين، دنوت وألّقيت نظري إلى الأسفل وإذ أخي رفقة خمسة أشخاص منشغلين بتلحيم سَلَم حديدي، وعلى جدار الطّابق الأرضي حطّت أبعاد كما يلزم لعمل يراد التخلّص منه سريعاً....، على كلّ بدا جليّاً أنّه مشروع من تصميم زوجة أخي، وأجزم أنها حريصة على أن يلفظني المسكن خارجاً رغم عدم حاجتها إليه، بل إن تخطيطها بدأ منذ وفاة والدي، ثمّ جسّد مع قدوم عمّي، وها هي اليوم مزهوّة بمحاصرتي داخل بيت والدي، هي المرأة هكذا حينما يترك لها الرّجل مجالاً لنهش عقله، يصبح بغياء يردّد أفكارها على شفثيه...، على كلّ أظنّ أنّ غرفة تضمّ سريراً وطاولة وقابسا مزدوجا تكفي واحدا مثلي يقضي معظم يومه بالشارع.

خلال بداية هذه العزلة تعرّفت على يوميات الحاج منور، أو عمّي الرافينو كما يلقّبه معارفه، نسبة إلى سلالة الحمام الإسبانيّ، وهو الذي لا يزال مصرّاً على أنّه هو أوّل من نقل هذه السلالة من إشبيليا إلى الجزائر، شيخ ظريف تلصق برأسه على الدّوام قبّعة غانسي هات رماديّة اللّون، وكانّها خلقت معه، وهو على نحافته كثير الحركة، لا يتخلّى عن سيجارته المدلاة من زاوية فمه اليمنى، حتّى خلال حديثه أو ارتشافه

لقهوته، التي أخذت حيزًا من شفثيه وأخضبت جزءا من شاربه الأشعث بلون التَّبغ، أتابع لعب بؤبؤيه وهما يتوسَّطان حدقتي عينيه الغائرتين في محجريهما، فأجزم أنّ الرّجل يحرك عينيه أكثر ممّا يتنفس، يبدو حذرا أكثر من اللزوم، فيما لا شيء من حوله يتطلّب ذلك، حَمّنت في البداية أنّها عادة التصقت به، فليكن رهابا دائما طبع على قلبه أثناء فترة العشريّة السوداء، طباعا غريبة وملامح غامضة، يغيب حتّى يُنسى، ثمّ يعود وكأنّه لم ينقطع عن مقعده يوما واحدا، تلاحقه أنواع من الحمام، ثمّ ما إن يقعد كرسيّه، حتّى تحطّ على قُبعته وكتفيه، من غير أن يبدي أدنى انزعاج من أصوات فرفرتها، يواصل هدوءه إلى أن يتعرّض أحد لحمامه بقول أو فعل، فينتفض من مكانه قاذفا وابلا من السّباب، ثمّ لا شيء يغيب صوته الغاضب إلّا انعطافه عن شارع المقهى وهو في طريقه إلى كوخه.

الحاج منور (لحظة مدمرة)

قالت لي جدتي فاطنة قبل أن تغيب شمسها: أنت طفل وديع، طباعك جميلة لكنك تميل إلى السذاجة، مع ذلك يسكن داخلك مخلوق ماكر ومهلك، أنت لا تعرف نفسك جيّدا، أخشى عليك من غضب قاس يؤلّب داخلك، فتصبح ذلك الكائن المرعب المدمر.

ظلت هذه الفكرة تنوس داخل ذهني حتى بعد سنوات من موت جدتي، لم أكن أظنني غير كائن واحد شقّاف الطّبائع، فما الدّافع الذي ترك جدتي تدارسني عن أشياء لا تُرى منّي ولا أعلمها؟

سمعت منها أنّي ولدت ميّتا، لكنّ قلبي نبض بفضل الله، ثمّ بفضل القابلية التي رفضت فكرة الموت وانشغلت بتدليك صدري لدقائق، وما إن فتحت عينيّ حتى انطلقت منها شرارة غريبة، جعلت الممرضة تقفز إلى الخلف مرتاعة، مع ذلك تظّل حكايات جدتي على تكرارها ونفاهتها وحشوها، ذكرى طبيبة عالقة بذهني.

بعد أكثر من خمسين سنة من العزلة داخل كوخ إسمنتيّ أشبه بالكهف، حَبْرْتُ فيها النَّاسَ والرَّواحِفَ والأشباحَ والوحوشَ، إلّا الوحشَ الذي حدتني عنه جدّتي، فيما أجزم خلال الآونة الأخيرة أن شيئاً ما تشكّل داخلي، أحسّ أنّي صرت أعيش أوقاتاً متقطّعة، ينفلت من حياتي زمن لا أفهم كيف عشته، أبصرني في مكان لا أستوعب قدومي إليه، وتخطفني لحظة أجدني مصدوماً بالفراغ الذي كان قبلها. محاصر أنا بأفكار أراني كنت واهما في تصديقها.

هذا ما آلت إليه حياتي بعد وفاة أختي الوحيدة نزيهة، عدت من إسبانيا لأجلها، بعد أن هاتفتني الخادمة.

- أختك تذبذب يوماً بعد يوم، تردّد اسمك نائمةً ومستيقظةً، بجاه والديك يا منور، ارجع ودعها تموت على رأتحتك وراحة حضنك.

هذه العبارة جعلتني أركل كل ما حقّفته في إشبيلية، كنت على موعد قريب مع الدّور النّهائيّ لسباق الحمام الرّاجل، تركت تشارز مولمانز يقفز فرحاً بعد علمه بانسحابي، جلبت معي زوجين من كلّ سلالة كسبتها، الزاجل والرافينو والقرقيرو... عدت فوجدت الخادمة تلطم خديها عند ترعة الباب، وبعضاً من الجيران وإمام المسجد يقفون حذو الطريق.

- تأخّرت بساعات يا منور.

- يا حظّ المسكينة عاشت وحيدة وماتت وحيدة... ماتت مشتاقة لحضن أخيها، يا الدمّ الغدار والريجة المقطوعة...

ارتخت راحة يدي فانفلت قفص الحمام وسقط على الأرض، كنت أراني في أعين الناس وهم يقلّبون أعينهم بين ملاحي وقفص الحمام، شخصا تافها مقبّتا، سافر وترك خلفه أخته المريضة لأجل أن يشاهد تحليق الحمام. لم أنتبه لنفسي إلا وأنا أحضن رأس أختي وأجشش بالبكاء.

كنت صادقا في بكائي، مدمّرا إلى أبعد حدّ خلال هذا الموقف، مع ذلك لا أحد كان يصدّقني، سهام كثيرة اخترقت قلبي، كان أضعفها قول أحدهم وهو يشاهدني واجما على جنازة أختي.

- "كي كانت حيّة مشتاقة تمرة، وكي ماتت علّقولها عرجون".

دفنت أختي في المقبرة الكبيرة، التي تنأى عن المدينة مسافة ساعة وربع مشيا إليها، دأبت على زيارتها والترحم عليها كلّ جمعة، طريق وعرة والصّعود خلالها يتطلّب جهدا مدروسا، ولا يعوّض هذا الجهد إلا بألف دينار توضع على راحة سائق التاكسي، مع ذلك فأقرب نقطة متاحة لتوقف التاكسي، تتطلّب مواصلة السير ربع ساعة حتى نصل إلى بوابة المقبرة.

يمكن أن تصف المدينة وأنت تقف على حافة المقبرة، كيف تصعد الأرواح إلى السماء والأجساد إلى هنا في آخر المطاف؟ هذه المدينة الخادعة بأضوائها وصخبها، يمكن أن أراها من عليّ على كمشة يدي، يمكن أن أعجبها وأحولها إلى قطعة صغيرة ثم أرفسها تحت قدمي.

آآه كم ظلمتني هذه المدينة، مع هذا الدّمع الحارّ الذي يخفر خديّ الآن، وهذه الخلوة المطلقة والزيف الحادّ بقلبي، "مقطوع من شجرة"، هكذا سمعت الإمام يشحذ لي من جيوب الثّاس وهو يحدّثهم عنيّ، لا أحد يمكن أن يستشعر حجم الانكسار بروحي، هذا شعور لصيق بي فقط. ما إن أنزل إلى المدينة، حتّى أحسّ وكأنيّ تركت هناك مع أختي نزيهة وآلاف من المظلومين بالمقبرة.

الحاج منور (الوجه الآخر)

(أنا بكلّ بساطة)

هذه مدينة نائمة على خديعة، وما يحملها على هذا الشرّ، هو غول يجب أن يهلك، وإنّ في جوف هذا الجسد روحا ضعيفة لا بدّ أن أنتصر لها، هنا في هذه المدينة المظلمة بالخطايا، هناك نقاط من نور لا بدّ أن ترفع، لا بدّ أن يعمّ الظلام وحده، حتى يتحقق مفهوم الهلاك أنا الآن في طريقي إلى شطب كلّ قطعة نور، لأجل أن ينهزم الظلام تلقائيا، حتّى لا يعرف الظلام بالتّور ولا التّور بالظلام، ومن غير أنّ يعتصّ قتل الشرّ، سأمتصّ كلّ النور ليأكل الظلام بعضه.

أنا لا أتخلّى عن أشيائي الثمينة إلّا بالفقد، وأنت أتمنّ ما أملك، أعيش بك، وأعلم منك سرّك وحمرك، قوّتك وضعفك، وأنا في جوفك، مفتاح آمالك، ثمّ إنّني ناصرُك ودافعك نحو هدي وهدفك، سأكون أنا بقوّتي وتكون أنت بصورتك، أنا الأوّل الغالب، وأنا الثّاني التّابع، جزءا جزءا وفردا واحدا، لذلك لن يسقط رباطنا إلّا بموت طرف منه.

"الخوف هو المصدر الأساسي للخرافات، وأحد أهم مصادر

القسوة، لذا فالانتصار على الخوف هو بداية الحكمة"

برتراند راسل

رزقي

(أزمة الرعب)

أفسدت ذراعي اتكائي على فكرة أنني مخلوق جامعي، قيمة اجتماعية لا يجب أن تضيع مني، كما لا بد أن تبقى محفوظة بأعين الناس، من غير أن تسقط بوظائف تحت خطّ مستووي التعليمي، مع ذلك وحتى أكون صادقاً، لولا أننا لجرّني هزال الجيب من أذني نحو أبسط وأرذل الوظائف، تماماً كما يحدث اليوم لمراد التادل بالمقهى، والذي كان ريفي بالجامعة.

تتعاكس حظوظنا، يجسد وحدتي وأحسد حضن عائلته، متدمّر من متطلّبات أخوته ووالديه، يقول عن نفسه وهو بكر أخوته: "حمار الدار فشلت قوائمه قبل أن يبلغ هضبة الأربعين"، مع ذلك لو كان يدري حقيقة أنّ حياته بكل مرارتها تبقى ضامنة للذة الحبّ، أمّا حياتي فلا ضمان لها إلاّ الوحدة والفراغ.

مع ذلك فأنا أملك ذاكرة مطّاطية، رغم كلّ المرارة، أنا لم أفقدي بعد من حضن والدي وحجر أمّي ووشوشات إخوتي الثلاثة.

والذي محمد، أو محاب الخديم، كما يلقب نسبة لجدي الذي كان في خدمة الشيخ المتصوف سي الشارف إلى أن توفاه الله، أين واصل انشغاله بخدمة تركة علمه، فحطت سيرته وطبع عنه أعماله، وسمي بذلك الخديم، لقب مشرف وقيمة معنوية بين الأهالي، انتقل اللقب بعدها إلى القائمة على رعاية مقام الشيخ، جارتنا الحاجة خيرة.

قبل وفاة جدي بسنتين، تحديدا سنة 1987، نال والذي قيمة مضافة بعدما قبل ملف توظيفه في الأمن الوطني، نخر جدي ثورا وأقيمت زردة مفتوحة لجميع الأفواه، بعدها عاش والذي محاب الخديم عزيزا ورمزا مهييا وأهلا للشرف والوجاهة... إلى أن غزا الرعب الديار، وتصدعت أسس السكينة، وأجبر كل ذي قيمة على تعليقها، فتألبت أوضاع والذي، من شبه قائد إلى رأس مطلوبة.

أندكر تحديدا ذلك اليوم حينما أجبرنا على النزول أسفل القبو، بدأ الأمر بطرق عنيف على باب البيت من قبل نانا الخديمة، ضرب متنوع بشبه صرخة.

- راهم جاو يا محمد دبر على راسك وراس ولادك، أغلق وصح الباب، وانزل ووجه سلاحك.

كانت الأشهر الأولى من عام 1997، فترة كثيفة ومرعبة لأهالي
 قريننا، إغلاق كامل للطرق، وتفتيش مستمر للبيوت.
 - الإرهاب، الإرهاب، الإرهاب...

كلّ الحناجر تصرخ في رعب، كان سبتنا داميا، أول ما سمعته ونحن
 بمخبئنا أسفل القبو، صراخا مدويا وضربا قويا على باب السّاحة الخشبي.
 - افتح يا العدو، أنت ميّت ميّت...

ثمّ سمعنا صوت ارتطام الباب بالسّور، تبع ذلك جلبة وثغاء الأغنام
 ونباح الكلاب، اقترب صوت الخطوات ناحية نافذة القبو، اضطرب
 المسدّس بقبضة والدي، حرّك رأسه يدعونا إلى الالتصاق بأبعد زاوية من
 القبو المظلم، تشكّلت خطوط من العرق على جبينه، النافذة الحديدية
 الصّغيرة لم تكتشف بعد، تتحرّك الأحذية عليها مثل السيوف على رقابنا،
 كلّما مرّ أحدهم عليها، ينتابني شعور أنّ القبو سيكشف، وأنّ جثتنا
 ستترس مثل الحشرات تحت أحذيتهم الغليظة، كنت أنّس غضبهم
 المتصاعد، مثلما أحسّ بقلتي وجفاف حلقي وانسداده، في لحظة ما دفع
 اليأس عن أفئدتنا دفعا...، ناآا العظيمة تصرخ بكلّ حماسة.

- لو محمّد موجود، كان الأرجل فيكم ما يقرب من الباب، تعرفوا أنّ
 سلاحه على يمينه، واش يفيدكم ترعبوا وتقتلوا البهائم، إذا كنتم رجالا،

انتظروا محمد يرجع مع أولاده من المدينة.

خفض والذي مسدّسه، وبلغ ريقه أخيراً، انخفض صوت النعال،
وهدأت جلبة البهائم، هكذا أحسست لحظتها، أنّ نائاً تعصر الألم من
قلبي، وتمسح عرق جيني، وقتها بقينا أحياء، لكن صوت الرعب ظلّ
يطرق أبوابنا ومسامعنا كلّ حين.

بتّ في حضن والذي أسبوعاً كاملاً بهذا البيت الذي أسكنه
حالياً، لحدّ اللحظة، أجهل كيف ملكنا هذه الغرفة المفروشة، قبل الحادثة
لم تلقف أذناي فكرة أنّ لوالدي بيتاً غير بيت القرية.

بعد أيّام برئت أرواحنا نسبياً من الحادثة، كان لا بدّ لنا من
الرجوع، إلحاح والذي يزداد يوماً بعد آخر، والبهائم قد تهلك جوعاً وعطشاً
وتفريطاً، مهما امتدّت أيادي الجيران ونائاً نحوها، تبقى يد صاحبها أفضل
من يرهاها، وافق والذي على مضض، عينه هناك تقول أنّ الأمور هدأت،
والجماعة ابتعدت بخطواتها عن حدود القرية، لكنّه ظلّ متوجّساً، أحسّه
ثقيل الكلام والحركة، لا يكفّ عن تفقّد الطريق والمارّة، تقنله الوسائس، كم
ليلة أيقظني خياله وهو يمرّ في ثياب نومه يتحسّس قفل الباب وهيكل
التأفذة، وكأنّ به يخشى أن تخلع من الحائط، يرجع من عمله ذابلاً خائر
القوى، كم مرّة تابعت نظراته السّاهمة في الفراغ، شحوبه وانقطاع صوته عنّا.

- ارجعي والأولاد، سألتحق بكم بعد ثلاثة أيام.

هذه آخر جملة سمعتها من والدي، تفتنت متأخرا لفكرة أنّ حدس والدي لم يخطئ، لكن غلبه قلب أمي، وهكذا تتصدّع الجبال بضرب متكرّر في قلبها.

بعد ثلاثة أيام عاد والدي، لكن كانوا خلفه، احتضن الثلاثة، وكان على عيني، وكنت خلف زرائب الماشية، ارتفع صوت الفرح ناحية حنجرتي، ثم تكمّش هناك، أحسّه للآن مثل حصي ملساء، يخنقني الطّعام والهواء والذكريات ... وكلّ ما يمكن أن يجرّر روحي من الماضي.

ماتوا حضنا واحدا مبتورا من ذراعين، كان هناك مكان فارغ، أذكر جيّدا تلويح كّف والدي في الفراغ وهو يقبّل أختي سلمى وأخي سالم، ثمّ سكنت وانهار جسدي على الأرض خلف الزرائب، أربع رصاصات موزّعة على أربعة رؤوس، كانوا خمسة رجال، نفّذ أربعة منهم جريمته، وشاهدت الخامس يسمح المكان موجّها سلاحه، كنت أنا المطلوب، جمعت كلّ ما يمكن من قوّتي لأخبره عن مكاني، وأنّ رأسي بحاجة إلى رصاصته لتكتمل دائرة الحزن، لكن أعجزتني الصّدمة على أن أرفّ جفنا أو أنطق حرفا.

صبرينة

(حدث طارئ)

أحسست أنني أثقلت على السائق أمر بنزولي، أبطأ سير مركبته، ثم صار يرمقني بين فينة وأخرى منتظرا إشارتي للتزول، بينما لا محطة لدي، كل الأماكن تتشابه بالنسبة لي في جملها.

- إلى أين أوصلك؟

- أي مكان تريد.

تلمل الرجل بمكانه، ثم رمقني من خلال المرآة العاكسة في دهشة، بينما وخزت قلبي أولى إبر الشوق، أحسست بخطين حارّين من الدمع تحفران خدي، كان عالما فسيحا رغم ضيقه، وأنا الآن في هذا المتسع كالغريقة، تتعكس عليّ الاتجاهات، ولا رأي أو فكرة تحفزني على الانطلاق إلى سبيل معين، ترى كيف حالهن؟، ماذا تفعل معلمتي نور من بعدي؟ هل سيترك مكان نومي شاغرا حتى أبقى ذكرى جميلة لديهن؟ أم سيملاً فراغه بطالبة أخرى وأمحي من ذواكرهن؟

وماذا عن مكاني بالصف؟ هل سيفتتس أستاذي نجيب عن مكاني حينما يستعصي على الجميع السؤال؟ أم سيضرب كفا بكف ويدعو

الجميع إلى الصّمت ويلوذ ناحية كرسيّه غاضبا مكشّرا.

ثمّ ماذا عن صهيب وزكرياء أين وصلا؟ كثافة الأثنجار موحشة ناحية الجبل، العراء، العطش، الجوع، الضياع، الإرهاق.. يا الله رحمتك بهما، زكرياء براءته محطّمة، لم يؤذ حشرة بحياته، كيف يوجّه نحو الضياع هكذا، هذا جرم، عار عليكم جميعا...

يا إلهي كيف ستكون ردّة فعل كلّ طفل بالملجأ بعد قرار طرد كلّ من بلغ سنّ التاسعة عشرة، سينتّمى كلّ واحد ألا يبلغ هذه السنّ أبدا، وأنّ تنتهي حياته قبلها، الطرد هو الموت، هكذا هو عمر كل طفل بالملجأ قصير جدًا.

لم أتمالك نفسي وانفجرت بالبكاء، بانتباه مكهرب بلعت صوتي الرّاعد، وكأنيّ قذفت قنبلة داخل بلعومي، ثمّ صرت أترقب بيأس انفجارها. أحسست بارتباك السائق وخلخلة بمركبة السيارة، استدار ناحيتي بقلق وهو يحاول السيطرة على المقود، قال مدعورا بصوت يفرض رقّة وغيظا.

- هوّني عليك، الله يفتح باب الفرح عليك يا وليّة، والله يخزي من ظلمك. استغفري الله والله يلعن الشيطان وأتباعه، تروي واهدئي، إذا كنت تريدين أي مكان أنا جاهز، والسّيارة في خدمتك طوال اليوم.

- بقيت على حالي حاملة ثقل رأسي بين كفيّ، وكأنّ رأسي كرة نار مستعرة سقطت بحيرة ضيّقة، لا أحد يمكنه امتصاص ضرر الآخر، لا الكرة المستعرة ولا البحيرة، لا رأسي ولا كفاي...

وقتئذ شعرت بتوقّف حركة السيّارة، ألقىت نظري خلف الزجاج، مسحت المكان من حولي، صمت ظاهر، الحركة ثقيلة... أين سار بي هذا الرجل؟

رفع السائق يديه إلى الأعلى كمن وجّه نحوه سلاح ناري، ثم قال من غير أن يستدير:

- والله أنوي لك كل خير وربنا شاهد، أنا الآن أمام بيت أمي الحاجة بختة، عجوز كبيرة أنا معيها الوحيد، إذا أردت ارتاحي اليوم، أو أي فترة أردت، وإذا كنت ترين في بقائي بالبيت أي لبس، فأنا مستعد للبقاء خارجه ما دمت أنت به، خليك هنا، سأدخل أسلم عليها، ثم تأتيك بنفسها، عجوز طيبة وقلها جنان محبّة.

نزلت، استدرت حول نفسي، شعور طارئ احتلني، لأول مرة أحسني في مقابلة عالم مفتوح على الدهشة، لا المشرفة نور تراقبني، ولا المدير يتطلّع ناحيتي وزملائي، ولا أنا في انتظار أقارب وأصدقاء، عقول

منفردة من حولي، اتجاهات عشوائية، أين أسير أنا... أين طريقي، بدأ العالم
يتقلص من حولي، ضباب كثيف يحول بيني وبين هؤلاء، هؤلاء... لماذا
يسرعون نحوي، لا أجد النور الكافي للرؤية، عتمة.. عتمة تامة.

أحمد

(مكسب كبير)

لا تزال الوحدة تمتص هدوئي، ولا أودّ أن أفترط في محادثة الجماد، حتى لا أندفع بشكل تلقائي نحو هاوية الجنون، بعد مدّة كان انجذابي واضحاً نحو الحاج منور، كنت ظلّه بالمقهى المقابل لشارع بيتنا، أراقبه من خلال نافذة الحجرة، تسبقه مرات عديدة حماماته، يمشي مثقلاً بهواجسه، يقتعد كرسيًا قبالة الشارع، ثمّ يسحب بين ساقيه الطاولة الحديدية الصغيرة، ويرفع صوته منادياً التادل، يرخي جثته على الكرسي، فيما يمسح بكفّه على ريش الحمامة الحاضنة على ذراعه، يدهشني إفراط تركيزه بما حوله، منتبهاً أكثر من اللزوم، حتّى أنّه استطاع التقاط ملامحي من الثّافذة أكثر من مرّة، وكأنّ بذهنه جهاز استشعار يرصد من خلاله كلّ ما حوله بشكل دقيق، يشير إليّ من بعيد ملوّحاً أن أنزل وأشاركه جلسته، أنسحب سريعاً ناحيته مستغرباً طينة الرّجل.

أذكر كيف انتفض غاضباً يوم حدّثته عن فعل أخي بي، وكيف حشرت في زاوية من زوايا حجرة معزولة من بيتنا، بينما أبقى على مساحة شاسعة للفراغ والعفن.

- لنا عبرة في قابيل وهاييل، وفي يوسف وإخوته، لكن أولئك أجزموا غيرة وحسدا، فما غاية أخيك في عزلك وحرمانك من بيت فسيح وحجرات فارغة؟ لولا الحياء وفتور العضلة، لأدخلتك عنوة وملكتك كل البيت، ولمرغت وجه أخيك بالتراب.

قال هذا تمثيلية متقنة، بعد أن نش عن جسده حمامه، وراح يلوي ذراعيه ويديه وأصابه، ويعلو بصراخه غضبا وغيظا من فعل أخي.

بعدها كانت مساحة شاسعة للصمت، ثم غادرني ولا تزال سحابة الغضب داكنة بين حاجبيه، ثم في اليوم الموالي سلم لي ققضا به عشر حمامات، رفعه ناحية صدري وقال مبتسما.

- كل وبع ما شئت منها، فقط لا تحبسها ولا تطلقها للريح، فالزاجل طائر حرّ يدرك سبيل صاحبه وحدود وكره ولو فارقها زمنا، ذاكرة الزاجل من الصّعب أن تمسح، وإذا أردت أن تفقه لغة ومزاج الحمام، فأنا أضمن لك متعة لا يعرفها إلا من حظي بها.

سررت لصنيع الحاج منور، هذا الرجل الذي أنفق مما يحب، وأذاق بطني لحما لم أعرف مذاقه من قبل، وملا جيبني بقدر من المال، لم أكن أعلم سلفا أنّ للحمام سوقا، وأنّ من الحمام أنواعا قد تفوق قيمتها أعلى الهواتف

الحديثة، بعت أربع حمامات، وأنا عديم الخبرة والحيلة، تمهّلت البيع أول الأمر وأنا أسترق الأنظار إلى الباعين وزبائنهم من حولي، ثمّ كسبت سعرا وسطا بعد ما يقارب الساعتين من الوقوف، شجّعتني فكرة أنّي لم أدفع في سبيل ما أبيع جهدا ولا مالا، إلى بيع الحمام جملة واحدة إلى شخص قال أنّه مربّب لأنواع من الطيور، ثمّ راح يفسّر طريقة يتقبّل بها الزاجل الوقوف على عشّ بيض غير بيضه، وأنّ أثنى أنواع الحمام ما يبيض ولا يحضن، ثمّ إنّ مناقيره القصيرة لا تسعفه في تغذية فراخه، ومنه لا بديل عن الزّاجل الذي يرعى الفراخ رعاية تامّة، كسبت من الحمامات الأربع سبعمائة دينار وعدت منتشيا بهذه السّوق العجيبة، وهذا المكسب الطيّب الذي عوّض فراغ الجيب، تركت عينيّ الشاب من خلفي ترقص فرحا بما بعت له، ثمّ أسرعت الخطى بين الأزقة وهاجس ما يقول إنّ الشاب قد استيقظ من غفوته، وعاد باحثا عنيّ ومطالبيا باسترداد ماله.

الحاج منور

(ظلّ أختي نزهة)

تغيّر فطيع ضرب أيّامي، الوقت يزحف ببطء شديد، أجدني أغلب الأحيان مضطراً للحديث إلى الحمام، أعالج كلّ مصاب فيها، أتفقّد البيض والفراخ، أنظف وأرتّب الأعشاش، أغيّر المياه وأضيف ما نقص من الأكل إلى المعالف، هذا كلّه وأنا بأعلى المقبرة، أو بنجيمي الجديدة أجاور الموتى والفراغ، مكان تمكّنت فيه من الفرار من أعين الناس وكلامهم المذلّ، صعب أن تُنبذ فكرة المرء خطأً، ثمّ ينبذ هو وفكرته معا من غير أن يجد سبيلا إلى تصحيح مساره بأذهان الخلق، أنا مدين بقتل أختي عبر جرم الإهمال، أنا مدين بتشويه حياتي.

بعد وفاة أختي، عادت الأذهان تفتّش بماضيّ، كأني بكلّ واحد تتجاوزه ملامحي، أو يؤثي إليه بسيرتي، يقول مشمئزاً: " هذا الذي قتل سيرته يوم كان طبيبا، كيف لا يقتل أقرب الناس إليه... أخته الوحيدة".

نعم في مرحلة ما كنت موظفا بصفة طبيب، أضعف الدوام عقلي، أفرطت في البحث عن أشياء استحال عليّ إيجادها، راحة البال، راحة الجسد، راحة الرّوح، الفرح بفكرة جديدة، التحليق بأهداف كانت حلما...

خلق مساحة جديدة للوعي، كلّ هذا لم يحدث، خطفتني الوظيفة واستعبدت حياتي بأكملها، كلّ الوقت لابدّ أن يكون في خدمتها، ثمّ تمنح لي ما تشاء من فرص راحة، حتى أتهيأ من جديد لخدمتها بنشاط طبيعيّ، أنا لم أجدني في هذه المساحة الضيقة، لم أحتمل، في لحظة ما من الجنون، من الإدراك، نجوت بذهني وفررت غير آسف، والآن أفق متسائلا: لم صار الناس يتأسفون لحياة تخلّيت عنها يارادتي؟ ثمّ إنّي ما أطلقت لسان التّدّم يوما عبر شفتي، ولم أقل مطلقا أيّ عجزت بعد الفرار.

هناك أشياء ثمينة من حولنا لا نحسّ بها إلاّ إذا شعرنا بالألم والفقد، أختي نزيهة، سُرقت كثيرا من قلبها، كانت تغيبني الوظيفة، وكنت مخدّرا بها، حتّى حينما كانت تتصل بي، أجدها تسارع في إملاء طلباتها، تقول: "لا أود أن أثقل عليك، عارف أنّ وقتك ضيق جدا، لكنّها متطلبات البيت يا منور"، كنت أفرح كثيرا وأنا أراها تقدّر قيمة الوقت عندي... أكنت مخدّرا لهذه الدرجة؟

كانت أختي نزيهة شجرتي العائليّة كلّها، كانت ظلّي وثمرتي وراحتي، بعد تخرجي من الجامعة، باعت خاتمها الوحيد، كي تملأ الدّنيا فرحا من حولي، أطعمت ما تيسر لها من أبناء الجيران، ثمّ تحوّلت من فلاحه تعنتي بمزرعتها الصّغيرة لأجل إطعام بطنين، إلى خادمة في بيوت الثّاس كي تسدّ

متطلّبات دراستي التي لا تنتهي، دعمتني زمنا طويلا إلى أن نسيتها... إلى أن ابتلعتني الوظيفة، حقيقة أنني أرحت ذراعيها المهكّنين ووقّرت لها جواً مريحا، لكن كنت آلة بلا قلب ولا دم، تراني زمنا يسيرا، تسألني عن سبب شحوب وجهي وضعفي، تنصحنني وهي تشيح وجهها عني ألا أسهر كثيرا، كأنها تودّ أن تخبرني أنها على دراية بطيشي، كأنها كانت تلومني على الوقت القصير الذي كانت تجديني فيه معها، ثمّ تبخر..

كسرت كثيرا من أحلامها، أعظمها وأصدقها أن ترى أبنائي، وم أوجعني حلمها هذا يوم أخبرني أحد العجزة كيف أنّ أخي أجّلت زواجها لأجلي، وكيف كانت تزورها زوجته باستمرار لأجل أن تطلبها لابنهما، معقبا: لم يكن رفضها الزواج تسويفا أو امتناعا، بل التزاما برعايتك واهتماما بشؤونك، إلى أن ذبلت، كان الرّجل العجوز يكلمني وهو يهزّ رأسه متأسّفا لوضعي بعد وفاة أخي..

- حتىّ يتخرّج من الجامعة منور... حتىّ يستقرّ في وظيفته منور... حتى يتزوج منور، ظلّ ابني لسنوات مصرا عليها، وهي مصرة على رعايتك.

فقدت أختي نزيهة ولعنت ما تبقى من حياتي دونها، تيقّنت أنّ ما تكهّنت به جدّي قبل زمن صار واقعا، شيطان ماكر ومهلك يسكنني.

خمس سنوات عشتها مجدداً مع أختي بعد توبتي عن الغفلة، كنت

أراقبها باستمرار في صمت، تدهشني المسافة الطويلة التي قطعها لاهثا
خلف وهم الثور، بينما الثور كان من خلفي، تلك روح كانت تستحق أن
يُعاش لأجلها دون الالتفات ناحية أيّ إغراء، كانت نزيهة دما وحبًا
وسلاما، وكنت في ظلّها ألتصق بأيّ شيء أراه أقرب إلى قلبها، ثمّ وهي
التي زرعت بقلبي حبّ الطيور، كتّا بمزعتنا الصغيرة، نخطّ معا أثلاما
منتظمة لزراعة البصل والثوم، يدهشني فنّها وتلقائيتها العجيبة في
التحويض والسّقاية، ثمّ في حبّ الأرض لها، الأرض التي لم تكن أحلامها
يوما، مثلما خنت أنا تلك الأحلام..

الحاج منور (الوجه الآخر)

(محاولة لفك القيد)

من أنا؟

أراهم يعبرون إلى المستقبل بقلق كثيف، أراهم كنقاط سوداء تحاول امتصاص ضوء حياة الآخرين الطيبين، هذه النقاط تتكاثر بشكل مرعب، كم من الوقت يلزمني حتى أقضي عليها؟

لا لا لا... هذا غير منطقي بالمطلق، لو عشت مليون سنة مطاردا لهذه النقاط، سأجدني آخر المطاف محاصرا بها وأنا مكبل باليأس والملل والحذلان، معادلة صعبة ومستحيلة، لكن لا بد من حلّ، حلّ ما يقرب المعادلة لصالح الفكر المنطقيّ، كلّ شيء قائم على فلسفة ما وفرضيات مفتوحة وعقلنة مدروسة...

مبدئياً أنا ملزم بالتبعية لجسد هشّ معظم الوقت، أقاومه بشدّة منذ زمن بعيد كي أمسك زمام القيادة، ولدت مشلولاً بمعية جسد بريء، هزمتني الرّوح التي تسكنه سريعا، أحسست كأنّ بالونا ضخما يدفعني ناحية زاوية ضيقة كلّما اتّسع عمر هذا الجسد، حافظت على بذرة ضئيلة متّي، كتلة مهملة في فضاء واسع، ثمّ أحسست بنفسي يتصاعد تدريجيا،

الآن... أصبح فعلا يمكنني أن أتنفس براحة مطلقة، ثم إنّ البالون الضخم الذي كان يحاصرني يتقلص تدريجيًا.

أدركت الحقيقة التي وصل إليها هذا الجسد، وكيف أصبح تأهبا وعاجزا، فقد وظيفته، ثم حاول أن يعيش حرا، ثم فقد الكثير منه بعد أن احتلته الوحدة، وفاة نزيهة فتح لي أبوابا كثيرة للانتقام من تلك الروح التي سجننتي زمنا طويلا، لكنني أعيش بهدنة الروح والجسد معا، وجودي المعلن قاتل، واندفاعي نحو القيادة مهلك، غير أنني أمارس سلطتي بتمامه مع إرادته، الحاج منور حقيقيتي التي أعلمها، في حين أعمل على أن يجهلها تماما، أنا لن أتخلّى عنه وقد تركه الجميع وحيدا منبوذا، وأكثر من هذا، سأستردّ مظالمه من عالمه، لا شيء يلزمني على ذلك، لكنها ملهاتي التي توقّر لي طاقة معتدلة، أودّ أن أذيب هذا الهيجان المرعب بأمر ما قد يحقق العدالة لهؤلاء البشر.

أنا لست مجرّد شعور طارئ، أستنكر بشدّة على من قد يفكر بهذا، أنا أعظم من كلّ حسّ إنساني، ولست تبعا لأيّ عضو بشريّ، أنا ملك نفسي، وهذا الجسد ملك لي، بدليل أنّه يمكنني أن أتحمّم بأيّ عضو أريد، ذلك حتى أنفي صفة من قد يقول أنني شعور منبثق من الجسم الصنوبري المقيّد خلف الجمجمة، أنا لا أسكن بين الروح والجسد، أنا أعلى

وأسمى وأعظم منها، بيد أنني لست جسماً مادياً بحاجة إلى روح تحركه، ولست روحاً مجرّاة بين العقل والنفس والرغبة والهواجس، كنت على وعي بالوجود في اللحظة الأولى من ولادة هذا الجسد، أي قبل سنوات من حاسّة الإدراك لدى العقل، وكانت شاهدة على ذلك، تلك السيّدة التي سحبتني من جوف مظلم إلى هذا الوجود التوراني، كنت سأنفجر بوابل من سهام الغضب نحوها، لكن لم يسعفني هذا الجسد المشلول من التّطق أو الحركة، لكن أحسست أنني سأشقّ رأسه وأثقب عينيه سخطاً على أغلال العجز التي تقيدني، طاقة أعظم مني كنت أودّ تحريرها، ثم فجأة تملّكني هدوء تامّ، استسلام مطلق، قد قطع الحبل السريّ، طاقتي العظيمة نزفت معظمها مع الدّم، ثمّ كما قلت سالفا عشت مهدنة وضعف سنوات كثيرة مع هذا الجسد.

أمّا الآن فالدّور عليّ، أحسّني مدجّجا بغضب مقيد بالحكمة، أريد أن أعوّضني ما أستنزف من طاقتي لزمان طويل، طاقة مرعبة وعجيبة، لا يمكن للعقل البشريّ تصديقها، أحدثكم وأنا الآن داخل هذا الجسد المتهالك والفاشل، يمكنني في جزء من الثانية، أن أقفز به وأقوده أينما أريد وأحمل عليه ما أشاء، ثمّ أعيده إلى طبيعته الأولى من غير إدراك منه، تجميد حاسّة الإدراك قد يكون أمر غير منطقيّ للوهلة الأولى، لكن إذا فكّرنا

جيدا، يمكن بناء خلاصة تنفيذ بأن ما يسمى بالإدراك محاصر بالمخاطر، حالة الجنون المؤقت والتأم، تناول المهلوسات والتحلل العصبي المؤدي إلى الخرف، كل هذه الأمور يمكن أن تمسح حاسة الإدراك من العقل، أمّا أنا فأعظم من كل هذه الأمور الحسيّة.

أملك الآن خارطة طريق لما حصل وسيحصل لهذه الرقعة، لكنني أودّ بناء هدي في مرحلة تلو الأخرى، هذه النقاط البشرية السوداء، يجب أن تضمّ في شبكة واحدة، ثمّ تسحق كما يسحق الدّباب.

"لا شيء في الدنيا يستحق الخوف وإنما فهمه"

مدام كوري

رزقي

(نصيحة نانا العظيمة)

يجب أن تفكر بصوت عالٍ وتحفظ بأسرارك ومشاريعك لنفسك، هكذا صارت تكرر على مسمعي نانا الحاجة خيرة، تغيرت فلسفة حياتها بشكل لافت منذ زيارتها لبيت الله، أصبحت أكثر عزلة وأقل حركة بين البيوت، في حين صرفت شؤون الزراعة ورعاية الغنم إلى أولادها وأحفادها. أصبحت نانا تستقبل الزيارات والعطايا بغرفتها المطلّة على الساحة الخارجية المفتوحة على الطريق، إذ يسهل عليها تعقب المارة وهي جالسة على فروتها، كما لا يجد المارة حرجا في دخول غرفتها.

- وجهك أصبح أشدّ بياضا ونعومة يا نانا، هي دعوة دعوتها بمكة فاستجيت لك.

الأطفها كلما وجدت فرصة سانحة لذلك، وقتما خلت غرفتها من الزائرين، فما تفتأ ترفع رأسها إلى أعلى مكرّرة وأناملها تضغط على كتفي.

- وجه ذابل وجسد هشّ يا ابني، الله يحسن خاتمتنا.

تمتنع كعادتها عن مدّ يدها القابضة على المال نحو جيبِي، دونما خلوّ البيت والنظر يمينا وشمالا، هذه منحة جدّتي نانا قد تستغرق يوما كاملا للظفر بها، في انتظار الوقت المناسب، بذلك كنت أتحاشى يومي الجمعة والسبت، وأيام الأعياد، أين تكتظّ غرفتها بالزائرين.

رفعت نانا المنحة بشكل آلي منذ صغري إلى اليوم، وكأنها نقرأ حياتي أمامها، وما تقتضيه متطلبات اليوم لشاب في مثل سنّي، جامعيّ عاطل يسكن المدينة، تدسّ بجيبي أوراقا نقدية ثمّ تنصرف عنيّ سريعا، تختفي من المشهد تحرّزا من أن تنتبه إليها الأعين، تدّعي انشغالها بعمل آخر وهي تتمم بكلام لا يتلقف منه ذهني إلا شيئا يشبه الدعاء لوالديّ وإخوتي. قبل أن أغادرها، تشيّعني إلى الطريق خارج ساحتها، تنظر ناحيتي بحزم ثمّ تناجيني قائلة:

- اصرف ولا تسرف، تصرف دينار فوق شبعك وحاجتك، ستندم عليه يوم جوعك، دسّ وكدّس، الدنيا لا أمان لها.

كان كلامها يرنّ في أذني كلّما أدخلت يدي في جيبِي وتحسّست أناقلي قطعا نقدية، حتّى بت أنفض جيوبي قبل خروجي، كي لا يراودني قلبي على شيء أشتهيه خارجا، ولأكون صادقا بيني وبين نفسي، لا باب للتردد أو الدوران خلفي.

يتبني صديقي مراد على يدي الشَّحِيحة، والتي لم تعد تبسط إلا على فراغ، كئنا ساعة نجتمع نتناوب على دفع الحساب تلقائياً، سواء أكلنا أم شربنا، وفي أحيان كثيرة نتشارك الدَّفْع دونما حرج، لكن في الفترة الأخيرة، لاحظ مراد أنني لم أعد أسبقه للدَّفْع، ولا أشاركه بدينار واحد، يسألني مستغرباً وممازحاً:

- أظن أن العجوز صارت تبخل عليك، ميزانيتك هذه الأيام في الحضيض يا صديقي، قد نجبر قريباً على الاجتماع خارج المقاهي والمطاعم، نتنفس ونتحدّث فقط.

يضرب كفه على الطاولة وينفجر ضاحكاً، بينما تسلل إلى قلبي نوع من التآئيب لتصرّفي، مراد يعيل عائلة بأكملها، فكيف لي أن أطمع في مدخوله البسيط، بينما أنا أرمي ما أكسبه من جدّي بالحصّالة.

منذ أشهر لم يرنّ هاتفي، كنت عقب فترة العشاء مستلقياً على سريري، أدور ذهني فكرة حزينة قطقتها من رواية شجرة اللّباب، فكرة تشبهني كثيراً " هكذا مكنت لي الأقدار التي قلبت بي الزورق أن أركبه مقلوباً... " عادت رنة الهاتف من جديد، رفعت الكتاب من على صدري، وملت إلى جنبي ناحية الهاتف، كان نبيل الابن الأصغر لنا، استغربت اتّصاله بهذا الوقت تحديداً، كان ظني سلبياً للغاية، كل شكوكي اتّجهت

ناحية مكروه أصاب نانا، من غير المعقول أن يكون من وراء اتصال نبيل أمر يبشّر بخير، وأنا الذي أدرك قدر الحقد الذي يكتّه لي الرجل من غير سبب واضح. مستعجلا أجبته:

- السلام عليكم ل..

لم يتركني أكمل تحيتي حتى قاطعني صوته الغاضب.

- كيف ترى اتصالي ولا تردّ، لولا إلحاح نانا ما كنت أتصل أصلا، المهمّ تقول إنها بحاجة في أمر ضروريّ، ويجب أن تقف عندها في الغد...

قطع الاتصال، وكنت سأردّ عليه بما يستحقّ لو أمهلني قليلا، قلت في نفسي، يهون تصرفه الصّبياني ما دامت نانا بخير، لكن لماذا تستعجل نانا في طلبي؟

متعب جدا الصّعود إلى مقبرة المدينة، حنّنت بادئ الأمر في ماذا لو كانت المقابر تسيج بالأراضي المنخفضة لا المرتفعة، أليست مسألة الوصول إليها أقلّ مشقة؟ ثمّ صرفت هذه الفكرة عن ذهني سريعا، أكيد أن الأوائل أولو حكمة وبصيرة، فما كان توجّههم إلى رفع المقابر عن بيوتهم إلاّ لأسباب منطقيّة، قد أكون موقّفا في بعضها، إذا قلت حتى لا تجرفها السيول وتتعرّى ويفقد كلّ قبر معلمه أو موضعه، أو لسبب روحيّ حتى

يستذكر كل من يرفع بصره تكبراً، أن المقبرة التي تقابله سيسكنها يوماً ما أحب أم كره.

أكل الفضول عقلي وأنا أنتظر لحظة الوصول إلى بيت ناآ، في حدود الثامنة صباحاً، لمحتها من بعيد، عند شجرة التين العملاقة، ترفع رأسها ناحية الأغصان، وتمدّ عصاها تهشّ بها على غنمها، دنوت، فأتاني صوتها المبحوح.

- عيسى... عيسى ... عيسى، انهض..انهض، الشمس بانت والشيء جاعت.

تنادي حفيدها عيسى كي يصرف عنها الشيء إلى المرعى، وما أظنّ صوتها الرخيم يصل إلى سور الحوش، وأنا مجزم أنّ عيسى يغطّ في نوم عميق، ولم ينتبه لا لصوت ناآ، ولا لطلوع الشمس.

انتهت ناآا لمجيئي، ألقّت عصاها جانبا، وأعدت تعديل حزامها على خصرها، وسارت نحوي تتطاولح في مشيتها وتلفتت من خلفها مشيرة بيديها إلى غنمها.

- هششش... هشششش، يا عيسى يا كسلان... الشيء جاعت.

مسحت على شفيتها رذاذ كلامها، وفتحت ذراعها مبتسمة تعانقي
تسلم عليّ، ثم ما فتئت أن أشاحت برأسها عني وراحتها لا تزالان
تطوّقان ذراعيّ، تغيّرت ملامح ناآنا فجأة، داهمني شعور بالخوف وهي تنظر
ناحيّتي بوجه متجهّم، عقدت ما بين عينيها وقالت بحزم:

- لماذا غبت عن زيارة والديك وإخوتك يا رزقي؟

نظرت إليها مستغربا كلامها، ثمّ ابتسمت بلطف وأنا أردّد داخلي،
أكيد هي بوادر الخرف بدأت تسكن عقل جدّي، المسكينة ضاع من
ذاكرتها نصف عمرها ولم تعد تتذكّر أنّ عائلي تسكن المقبرة منذ سنوات،
مع ذلك لا يمكن لعقل بشريّ أن ينسى تلك المأساة مهما استحوذ عليه
الخرف، بالأخصّ أنت يا ناآنا.

هزّت ناآنا جسدي من جديد، وصاحت قائلة:

- ردّ يا بني، البارحة نشوف أمك في المنام تنظر ناحيتك من مكان بعيد،
وخلفها والدك وإخوتك، لا تكذب، كم صار لك من الوقت ولم تزرهم؟

زفرت عميقا وأنا أحاول ترتيب المدّة التي استغرقتها غائبا عن زيارة
المقبرة، قد تكون المدّة أطول مما تبادر إلى ذهن ناآنا، قد تفوق الخمس
سنوات، وهنا يخرسني الحياء أن أدكرها فيزيد غضبها استعارا، قبل أن

أنفوه قرع ذهني سؤال صعب عليّ ردّه: كيف لوالدي أن تتخطاني وأنا صاحب الملامة، وتقصد ناآ؟ ثمّ ما لبثت أن حلّت فكرة أخرى مسحت من ذهني السؤال، هي عطايا ربّانية لأهل التّوايا الصّادقة، هكذا يكبرون ويكبر تخاطرهم مع من أحبّوا بصدق. قبلت رأس ناآ، ثمّ قلت ملاطفا:
- هي مدّة.... لكن أعدك، فجر غد سأنتقل نحو المقبرة.

لا يزال المكان موحشا، كلّما اقتربت أكثر من المقبرة ازداد توتّري، لا أحد فكرّ بتمهيد هذا الطّريق وإزالة الوحشة عنه وزرع ما يستأنس إليه الزّائر، كأنّ النّاس هنا يتخلّصون من موتاهم بقلق، يدفنون نفاقهم سريعا، ثمّ يفرّون إلى دنياهم دون رجعة، مجبرون لا مخيرون، لو كانوا يحبّونهم بصدق لزرعوا الورود على حواف قبورهم، ولما تركوا الشّوك يحتلّ المقبرة بهذا الشكل المؤذي، قلت في نفسي هذا ثمّ تذكّرت أنّي أنتمي إلى هؤلاء البشر وأحمل نفس سلوكهم، اتّسعت المقبرة بشكل لافت، عكس ما كانت عليه، تكاد تنفجر بالقبور وتتفرّع ناحية الوادي، ألقيت السّلام على الموتى، جاءني الرّدّ باردا، نظرت ناحية اللّافتة، التقطت لها صورة من ذاكرتي وعدت إليها سريعا، شاخت ولم يعد لها أيّ معنى، زال كلّ الطّلاء، وأكل الصّدأ حوافّها وسقطت منها بعض الحروف، أترى لهذا الحدّ يضع منا حبّ من فقدنا؟ تيمّنت المقبرة ناحية مرتفع صخريّ يطلّ على المدينة، وكأنّه

مكان مهيأ من قبل لاعتلائه، أحسست وكأنّ دافعا ما يدغدغ مشاعري
ويدفعني للصرّاح ناحية المدينة، قبضت على حدود المدينة ببصري،
وهتفت بصوت عال وأنا أستعير من نائنا كلامها عن المدينة، حتّى خيّل إليّ
أنتي قائد ومن خلفي جيش من الموتى.

- أيتها المدينة، أيتها الحسناء الفاجرة، كم بعت وتبيعين من الوهم للسّاكين،
هنا نهايتك، حيث تُطفأ الأضواء ويعمّ الظّلام ويعطلّ الحبّ وتنبت
بالقلوب الأشواك...

من غير أن أنتبه وجدنتي أرتعد وأكّز على أسناني غضبا، وبجوفي
تجمّع شرّ عظيم تجاه المدينة، فتحت قبضة يدي ورحت أمّرها ببطء على
حدودها، ثمّ شددت قبضتي، ووسّعت ما بين أصابعي وكأنتي أذرو الرّماد
ما بينها، قفزت عن المرتفع الصخريّ، نظرت من حولي وجلا، وكأني لتويّ
تخفّفت من طاقة كانت تسكنني، دعكت عيني، ثمّ شدّني أسفل المرتفع
لمعان جسم ما، دنوت... رفعته عن التراب ناحية الشّمس، ثمّ رحت
أحدّث نفسي باستغراب.

- سلسلة... ومن ذهب، أمن عنق أكله الدّود سقطت؟ أم من عنق حي،
ثمّ كيف وصلت إلى هنا؟ هل هناك كائن غيري سبقتني إلى اعتلاء هذا
المرتفع. رحت أفنّش الأرض عن آثار سير، ثمّ انتهت إلى طريق فرعي بين

الأحراش، ينتهي إلى المرتفع ويمتدّ طويلاً إلى نقطة مظلمة، خزرت بصري ناحيته، ثمّ قلت وأنا أبتسم للسلسلة بيدي:

- أظنّ أنّ كنوزاً هائلة تسكن هناك، وكائن غريب يجرسها ليلاً من هذا المرتفع.

ثمّ شدّني منظر سرب من الحمام ينطلق من نفس تلك النقطة، وقفت مشدوهاً لأحرق السرب بنظري إلى أن غرق بالمدينة، تهتّت بعمق وانسحبت قائلاً:

- أيّ عالم يسكن هذه المقبرة، أعوذ بالله من شرّ ما أجد وأحاذر.

دستت السلسلة بجيبي، وسرت أتخاشى القبور والأشواك محاولاً استذكار جغرافيا المقبرة قبل أن تتوسّع، أرسم بذهني خارطة الموقع والطريق الذي كنت أسيره، انتهت وأنا أركّز ناحية السور الترابيّ، أنّي كنت أسير ملتصقا به، ثمّ صحت فرحاً.

- الوتد... الوتد.

حشّت الخطي ملتصقا بالسور، أتفقد كلّ شبر فيه، إلى أن لاح لي من بعيد الوتد بقلبه، دنوت أكثر، ثمّ وجهت بصري ناحية موضع القبور، ارتخت كلّ أطرافي وجثوت على ركبتني غير آبه لوخز الشوك، انفجرت

باكيا، تذكّرتني وأنا خلف زرب الماشية، انتفخت الحصى الملساء بجنجرتي،
قتلوا وهم حضن واحد، أبي وأمي وسلمى وسالم، وهاهم الآن تحت قبور
منسيّة أكلها الشوك والنسيان.

صبرينة

(هدوء مريب)

شعرت بثقل بمفاصلي، بالكاد أحرك أصابع يدي، أودّ فتح عيني،
لكن هناك ألم يلدغ جانبي رأسي، أستأنس إلى قطعة دافئة أعلى جبيني
تشعرنى بالاسترخاء، أصوات آتية من بعيد، ثمّ لسان ما داخلي يصرخ
مستغيثاً:

- المعلّمة نور.... المعلّمة نور.... المعلّمة نور.

أحسبني لحظتها كنت أملأ العالم من حولي صراخاً وبكاءً، أطرافي
كلّها استيقظت دفعة واحدة، ثمّ بدأت تضطرب بعشوائية غريبة، حملت
رأسي دون وعي، ثمّ ضمنت أطرافي ناحية حضن جسد كان أمامي، لم أر
من، لكنّي وجدته أكثر دفئاً، وأقدر على احتواء آمن لمشاعري، بكيت
بحرقة ورأسي على كتف كانه إسفنجة، يبالح في إراحة ثقل رأسي، ويمتص
دموعي من غير ارتواء، بكيت، بكيت طويلاً، لم أدر كم المدة، ساعة أم يوم
أم أسبوع أم شهر...، أخرجت كل ما في جعبي من خيبة وألم وانكسار،
غسلت قلبي بدمعي، وسموت فوق ذاكرتي، استفراغ مدهش لكلسة
السواد التي لقت روجي وأفرطت في عصرها، كّف بيضاء تمسح على

ظهري وشعري، وصوت رقيق ينوح ويكي معي، يقاسمني ضعفي ويشاركني قوته، لم أفصح عيني، ولم تثرني الرغبة في اكتشاف مصدر القوة العجيبة التي تحنو على جسد هش، تمتت... كآخر أمنية، أن أمحي من الوجود، وأنا على هذا الشعور الهائل من السكينة، أن أرحل بهذا الأمان المغربي، أن أنثر بعد هذا الاخضرار، كأبي ورقة من شجرة تقدّر خريفها...
يهزني الجسد يمينا وشمالا، تتأرجح مشاعري المتأججة، ثم تخفت ناراها رويدا رويدا، أتماهى مع موسيقى القلب النابض، يشع داخلي نور مولود جديد، كأبي الآن ابنة اللحظة، تنبت روحي على شعور صادق، شعور يميل بكل ثقله نحو حسّ الأمومة. بعد لحظة إدراك، عدت بوعي إلى الحقيقة التي أنا عليها الآن، شيء من المعلّمة نور بهذا الجسد، حبّ صادق، أو سكينة ناحية الروح التي تضمّني، هذا ما يفسّر صراخي الطّائرئ باسمها، يقهرني هذا الشّعور، أن أمثّل جسدا بجسد آخر أحنّ إليه، ثمّ أمارس عليه مشاعر صادقة، مرعوب هذا الجسد الذي أمسك به الآن بقوة، أشعر برجفته ودهشته، عدت مجددا إلى بكاء غزير، تشتدّ أضلعي تماسكا، المعلّمة نور، عليها أن تحارب لأجلي، كيف تسمح أن يضع من قلبها حبي؟، كيف تسمح بهذا المتسع بيننا؟ كيف تسمح أن أتلاشى من بين عينيها؟ على يقين أنّها كانت تدرك بأنّي ساكون على

خطر من أول خطوة خارج الملجأ، مهما كانت الظروف المجبرة على ضعفها وصمتها، كان لا بد ألاّ تسمح بانفصال روعي عن روحها. تفتت ذاكرتي من أول خطوة خارج الملجأ، صهيب... زكرياء، ترى أيّ مصائر لحقت بهما؟ ذهنان فارغان من المعرفة...، ثمّ المقبرة المرعبة وصاحب التاكسي المسالم والمدينة الصّاخبة... ثمّ ذلك الصّباب المفاجئ، هذه...

سحبت رأسي سريعا، ثمّ ملأت عيني بنور المكان، كانت صورة ملبّدة لعجوز تقابلني بحيرة بائنة وحزن مفرط، يغطّي نصف رأسها خمار مزركش باللوان داكنة، بينما تنفلت ناحية جبهتها خصلات شعر تتمازج بين لون الشّيب ولون الحناء، ترتجف شفاتها في ذعر، وتزلق من عينيها حبّات دمع تعبر ناحية خطوط متفرّقة من وجهها المجعد، تمسح بكفيها الأملسين كامل وجهي، أراقبها بصمت ودهشة، يستريح وجهي على راحتها، تسيل دموعي على إبهامها يافراط، ثمّ تدفعها على ظهري كفّاه، ويأخذ الجريان سبيلا إلى مرفقيها ليقعا على حجرها، تنظر ناحيتي بذبول، تهزّ رأسها وتحرك شفّتها على فراغ، تودّ أن تقول، لكنني أحسّ عجز لسانها على لساني، كم وددت أن أشكو ألمي على لسان مبين، غير أنّ لغة الدّمع أقوى وأشدّ.

أحمد

(أزمة الحظ)

أحاول الفرار دوما من هواجسي، أفنّس خلال يومي عن أشياء واقعيّة تحركّ الوقت دون التعرّ بالفراغ، ثمّ إنّ عثرة واحدة من الفراغ قد ترجّح غلبة الهواجس علي، وأبواب الهواجس واسعة ومغرية.

هكذا يجربّ الأغنياء مشاريعهم على الفارغين من الفقراء، يرتّبون لعمالّهم شروطا خاصّة، ثمّ يهبون التّجربة حسب أهوائهم.... لا أعلم كيف تذكّرت فجأة وبدافع من الإحباط سيرة الفاكهاني لزعر، أنا مدين لحنجرتي ولحبابي الصوتيّة بالكثير من الأعذار، قبل خمس سنوات، كان صوتي يعلو بحماس مفرط، تجاوز أبنية كثيرة وشارعين ومنعطفات، ووصل حتّى إلى أذن أخي... أخي الذي كان يقول مازحا وفي أحيان كثيرة بنبرة أكثر جدّية:

- أما زال لزعر يعطيك ثمان مئة دينار مقابل ثمان ساعات صراخ وصياح؟
يا رجل التّاس يشتكون من صوتك، ومستعدّون أن يشتروا صمتك بألف دينار، إما أن تطلب سعرا مضاعفا، أو تصمت وترجّح راحتك وألف دينار.
كنت أكرّر وأنا منتدّش بنصر خفيّ، مادام التّاس يتحدّثون عنيّ

فهناك قيمة معنوية مضافة....، كنت أتعمّد في أحيان كثيرة تفجير حبالى الصوتية بشكل أعنف، حتّى أضيف مساحة جديدة لمجال وصول صوتي الذي لم يعد يليق بأحد ما عدا لزعر، كنت أنا البائع والقاطب والصّارخ حول صناديق الفواكه الممتدة طولا وعرضا بأنواع مختلفة وأثمان متفاوتة، التّاس يكرهون صوتي، لكنهم ينجذبون تلقائيا نحو الأسعار التنافسية المغربية.

خمسة أشهر وسبعة أيّام عمل بمحلّ لزعر الفاكهاني، نصر تجاري محقق، ثمّ أصبحت بعدها كلوحة إشهارية صدئة، لا أحد صار يشير أو ينظر إليّ بعدما علم مقرّ المحلّ الذي يقدّم أسعارا جيدة لزبائنه، أكثر من هذا أصبح لزعر يهزني على الصّباح الزّائد، كثيرا ما يطلب منّي الصّمت ويصرفني إلى مهمّ أخرى، أرشّ الفواكه بماء بارد، وأرفع عن الصّناديق قطعاً ذابلة أو تالفة، مهمّ كان يقوم بها هو من حولي، يحوم بمشية البطة، وينشّ على الصّناديق بمنشّة من خيوط القشّ، محكمة الرّبط بسلك إلى نصف عصا مكنسة، كنت لا أسمع صوته إلّا نادرا، ولا يقبض بصري من هذا الكهل القزم، إلّا ذراعه الممتدة للرّشّ أو النّش، لكن يومها أبصرته بقامة أطول، وبجمه الحقيقيّ، وانكشف دور كلّ واحد منّا، هو السيّد وأنا الخادم، وكم غفلت عن هذا طيلة أشهر، قبل أن يعلن قرار طردي بشكل

لبق، طيلة أيام كنت أكثر حساسية من موضعي، ضاق صدري وضاق بي المحلّ من معاملة صاحبه والزّبائن، كم مرّة هزّني تنبيهه داخليّ بالانسحاب حفظاً لكرامتي وصوتي، كان مصيري مكشوفاً، خادماً ثقيلًا دون هويّة أو هدف، لو ربحت كما قال أخي راحتي وألف دينار، ولو مزحاً، أفضل من أن أكتشفني شخصاً ساذجاً ومخدوعاً ومطيّة لرجل غنيّ عرف كيف يستغلّ تحمّسي مقابل أجرة زهيدة.

ثمّ اليوم لم أفلح في تربية الحمام، ولم أكن إلاّ نموذجاً مشوّهاً عن عمي الرّافينو، حماس تبخّر سريعاً، لم أكسب من المشروع سوى ما خرجت به من السّوق، أو ما دخل بطني، احتفظت بثلاثة طيور حمام داخل القفص، لكن وكما كانت تقول أمّي وهي تسحب من بين يديّ عنوة لعبة ابن جارنا: " لي ما هو ليك غير يعيبك"، إذ ما كان لي من القفص سوى الفراغ آخر الأمر، وكانّ الحمامات الثّلاث اتّفقت على صناعة مصائر مختلفة كادت تتلف ذهني، كانت البداية بإحدى الحمامات، حين لاحظت انزعالها في زاوية دون أكل أو شرب ماء، أتابع انكماشها وغور عينيها ورفع منقارها إلى السماء، في اليوم الثّاني تفقدت القفص، فلم أجد ما أدفع به غيظي إلاّ ضرب كفّ بكفّ، رأس الحمامة المريضة مدلّى من شبّاك أسفل القفص، ورجلاها متصلبتان إلى أعلى، وتقع في نفس زاويتها السّابقة حمامة ثانية،

بنفس وضعها في استعداد للمصير نفسه، ثم بينما أنا أحاول أن أجد كيسا للتخلص من الحمامة الثافقة، إذ بقطّ يتسلّل داخل القفص، ضرب صوت ضجّة مسمعي، استدرت مسرعا ناحية القفص، وقفت مشدوها والكيس بيدي اليمنى، وأصابع يدي اليسرى تشدّ بإحكام رجلي الحمامة الثافقة، بينما المشهد أمامي واضح وجليّ، القطّ ينظر ناحيتي ثم يقفز بعيدا وأسنانه تكثر على رقبة الحمامة المريضة، بينما نجت الحمامة الثالثة من القطّ والقفص وحلّقت بعيدا، كنت أتأمل المشهد وذاكرتي تقصّ عليّ ما روته جدّتي عن يحيى قرزُر، تخيلتني بنفس سذاجته وقلة حيلته، ساعة بحثت عنه والدته فلم تجده، ثم لم يبق لها إلاّ نخم الدجاج، حينما صاحت عليه باسمه فأجابها بنقطة الدجاج الحاضن لبيضه، قرزُر، قرزُر....، انفتحت صوبه فإذا هو حاضن بيض الدّجاجة، والدّجاجة ميتة قربه، وفي الجهة الأخرى شكوة اللبّن مفروغة عن آخرها وجنيتها زجاج مهشّم، عرفت بعدها أن ابنها يحيى أراد اللبّن مستغلا غيابه، فأخذ شكوة اللبّن بيد ويده الأخرى حمل الكأس، فصعب عليه فكّ رباط الشكوة، طرقت لحظتها حيلة لم يجد أفضل منها، رمى الكأس عاليا، ووجه يديه سريعا إلى فم القربة، أثناء ذلك باغته نقيق الدّجاجة، فارتعد بمكانه وسقطت الكأس ثمّ القربة، فثار غاضبا وركلّ الدّجاجة فصرعها، ولما عمّ السكون وسكت عن يحيى الغضب، علم

أنه أمام ورطة عظيمة، وقتئذ تحوّل يحيى إلى دجاجة حاضنة للبيض... رفعت وجهي ناحية السقف، قهقهت حتى كاد ينقطع نفسي، هناك صدمات تتضارب فيها المشاعر، عوض أن نبكي ونشهق طويلا، تنتابنا موجة من الضحك الهستيري، تحوّلت ناحية النافذة محالوا التقاط بعض الهواء، وأنا بذلك الوجه الضاحك اصطدمت عيناى بلامح عمي الرافينو وهو يلقي دهشته ناحيتي.

كنت على وشك أن ألقى التحية عليه، لكنني تفاجأت بانسحابه مندفا مثل قطار خرج عن سكتته، يصطدم بكل ما وقع في طريقه، ففرت الحمامات بعيدا عنه وهي تضرب بأجنحتها مرعوبة، الكراسي والطاولة مقلوبة من خلفه، كان آخر المشهد، صوت الفنجان الزجاجي، وهو يرتطم بالأرض ويدلق القهوة على الرصيف، ثم يتدحرج على الطريق وينفجر تحت عجلة سيارة، خرج صاحب المقهى ساخطا يقذف ناحيته وابلا من السباب، ضرب المنشقة أرضا، ولم يصمت إلى أن غيّب عمي الرافينو المنعطف.

انسحبت سريعا من المشهد، خشية أن يدخلني صاحب المقهى في نزاع لا طائل لي منه، قد أتهم على أقل تقدير باستفزاز الرجل، وأنا رفيقه الدائم وصديقه الوحيد.

أرخت جسدي على السرير، تهدت عميقا ورحت أبتسم وعيناي
على القفص الفارغ.

- كل ما تملك يا أحمد استطاع أن يحزّر نفسه منك، إلا أنت أيها
المعتوه الحقير، لم تستطع تحرير نفسك منك، ومن ضعفك وانهزامك
وحظك العاثر.

كان صوتي ينطفئ ببطء وهو يختنق بالغيظ والانكسار، نادرا ما
كانت تفيض عيناي بالدموع ويحرقني مجراها، وكأّن حمما تنزف من عيني
وتحفر أخاديد أسفل رأسي، تابعت وأنا في أوج انكساري.

- ما الذي دفع الحاج منور إلى أن يثور بهذا الشكل؟ أتغيظه لهذه
الدرجة حياة حمامة كان القطّ قد خطفها في غفلة منّي؟

قمت من مكاني وكهرباء الصّداع تمرّ شرارتها من رأسي إلى أسفل
قدمي، سحبت دفتي التّافذة، تشكّل الظلام الذي أريد، أغمضت عيني قبل
أن أضع رأسي على الوسادة، أومض وجه عمي الرّافينو المتغصّن تحت قبة
الغائسي، ثم اختفى وفقدت الإحساس بكلّ شيء.

الحاج منور (قلق مضاعف)

أنا أعيش بمودّة هذه الطيور، قطع صغيرة من حولي تغمرني بدفء هائل، أتدرب تدريجياً على صناعة حياة جديدة معزولة... حياة لا أريدها أن تتسع كثيراً حتى لا أتعثر بالفراغ، هاجس ما يسحبني نحو هاوية الماضي، لا بد أن أتخذ وبكل جرأة قراراً لا رجعة فيه. أنا اليوم أتابع قطيعتي مع الماضي دون تفكير لما حدث، ما كان في الماضي مجرد كابوس مفرع، فاصلة من حياة لم تنته بعد، على العكس من ذلك، هذه الفاصلة نبهتني إلى الاستيقاظ ثم الالتفات إلى جهة أخرى ومواصلة الحياة.

من ناحية ثانية، كثرة التفكير في الفخاخ إذعان للسقوط في إحداها، وأنا معلّم حياة، شربت إكسير الحكمة على فترات متقطعة، حتى بثّ أفهم لغة الطير وأنتبه سريعاً إلى مشاعر من حولي، مع ذلك لا يمكن لأيّ إنسان أن يفلت من المتغيّرات التي تطرأ على مراحل العمرية، وها أنا الآن أدنو من عمر الشيخوخة، حيث بدأ يتّضح لي ما يعانيه الواحد خلال هذه الفترة من ضعف في الذاكرة وكثرة النسيان.

ربّما هي مجرد أعداء أقدمها حتّى أتعايش بشكل طبيعيّ مع ما أجده
مّيّ في ساعات من اليوم، أجدني متعلّقا بجسدي أكثر-هكذا شعور
مباغت- مثل طفل سرقت منه لعبته ثمّ استردّها بعد عناء طويل، كأنّ
روحي تودّ أن تخبرني بشيء ما، لكن أعجزتها لغة التّواصل معي، على كلّ
حال، لم أجد أحدا يشكو من تصرفات محيرة اقترفتها، أو أنّ طباعا قاسية
صدرت مني، مادام الوضع هكذا، فكلّ شيء طبيعيّ، ليس هناك داع
للقلق...، لا قلق، مجرد هواجس، وأغلب الظنّ أن التّوم يغلب جفوني في
أوقات متفرّقة وغريبة.

أقول هذا استنادا إلى كلام الدّكتور لطفي، طبيب الأعصاب
بالحيّ الشرقيّ، قبل يومين وأثناء الزيارة التي دامت قرابة ساعتين، كان
أغلبها أحاديث جانبية عن الفترة التي كنت أشتغل فيها بالمستشفى
الحكوميّ، يوم كان زميلا لي قبل أن يفتح عيادته الخاصّة.
- أنت هو أنت يا منور، دماغك سليمة وأعصابك متماسكة.
- أتقول هذا من غير الكشف الدّقيق؟

- أنسيت أنّي اشتغلت فترة في التّمرّيز التّفسي؟، حديثي معك الذي
شارف على ساعتين لم يكن من فراغ، أنت بحاجة إلى الهدوء يا صديقي،
لا تترك فرصة للعبث النفسيّ داخلك، لا بدّ أن تحارب كلّ هاجس يدعوك
إلى الإحباط والقلق، صحتك العقلية سليمة، ما دمت قادرا على التصدّي

للأوهام وغير معرّض للهلوسة، ذاكرتك تشتغل بشكل ممتاز، منتهبه ودقيق في تذكرك للماضي، أنت هو أنت، لا فصام في شخصيتك يا صديقي.

- أوقات كثيرة أحسّها تضيع منّي من غير انتباه لها يا دكتور.

- أنا على دراية تامة بعمق المشاكل والاضطرابات التي تنتاب المرضى، أغلبها يخلق مثل كائن طفيليّ، ثمّ تغذّيه الوسواس والهواجس إلى أن يتمكّن من النفس.

- من تقصد بالكائن الطفيليّ؟

- هههه كائن شفاف داخل نفسك، يا رجل أظنني أحدث زميلا سابقا في الطب، تذكر... ألم تعالج أشخاصا مصابين بالتهابات فطرية ناجمة عن تنقل طفيليّ من إنسان لآخر.

- تقصد الملاريا والأمبيات...

- تشبيه مناسب يا متورّ..

- لكن...

- أفهمك، نفس الأمر بالنسبة لك، الوحدة والقلق والخوف... مشاعر تتسرّب إلى داخلك كالطفيليات.

الحاج منور

(الوحدة الموحشة)

أحاول الفرار من هواجسي، أحاول الفرار من جسدي، أحاول الفرار من أحلامي، أيعقل هذا؟ أعصابي ملتهبة، جسدي يغلي، كأنّ هناك كرة نار موقدة في بطني، أقوم من نومي مرتاعا أرتجف، سكاكين دماء، صراخ بكاء، أصوات مرعبة تنادي باسمي... جسدي مخدّر وإحساس بالوخز في كامل جلدي، كأنّ النمل كان سارحا عليه، بقع زرقاء متفرقة، وحلق جاف، أي معارك خضتها بأحلامي؟

أقوم أكمل ما تبقى من الليل قبالة برج الحمام، أبتلع علبة أو علبتين من السجائر دونما تفكير، فقط أحاول أن أتشبّث بخيوط الدخان وهي تغرق في الظلام، أركّز نظري على الجمر وهو يلتهم التّبغ، أقطع الطّريق نحو أي فكرة تحاول الانفلات من ذهني لتصير هاجسا أو إحساسا ينفث الرعب داخلي، أشرب الكثير من الماء عقب كلّ سيجارة، أحاول أن أعوّض كمّيّة العرق التي نضحت من جسدي بعد أوّل إغفاءة، أمّهار سريعا، على أتفه فكرة تنسرّب إلى ذهني من الماضي، أبكي بحرقة، أنتفض من مكاني وأركض ناحية قبر أختي، مثل طفل استوحش حزن أمّه بعد

ضياح، أرتي عليه، غير مكترث بالحصى وهو يلدغ جسدي، ولا بالتراب المتسلل إلى حلقي، أحس أن ذراعي استطالنا واحتضنتنا كل القبر، أشعر بهدوء، بأمان يتسرّب من القبر ويحتوي كل جسدي، تنطفئ كرة النار داخلي، أتحمّس برودة المكان من حولي.

- بعد كل هذا العمر، أحتاجك بشدة يا نزيهة، أخوك ينهار يوما بعد يوم، فررت من المدينة، من أعين البشر التي تلاحقني منذ رحيلك، لكتني لم أستطع الفرار من هواجسي يا أختاه، يلازمي الرعب، شيء ما يسكن داخلي، يؤذيني بشدة، أضعف وأتهاوى، أعصابي تتلف، تحتل ذهني الوسواس، قد أصير مجنوناً عمّا قريب، إن لاحظت انقطاعي عن زيارتك، لا تقلقي، حبنا بخير، غير أن جسدي منك، وذهني شريد وروحي ذابلة.

أستيقظ على لفحة الشمس، لا وقت محدّد لدي للنهوض، أفرك عينيّ آخذ وقتاً لاستيعاب ما حدث، أمسح التراب من على وجهي، أتحمّس من ملوحة داخل في، ثمّ أمجّ اللعاب الممزوج بالطين، ينتابني سعال حادّ، شيء ما عالق بجلقي، كلس التربة يخنقي، أقوم بصعوبة وأمشي ناحية الكوخ، محاولاً الوصول إلى قارورة الماء، أدلك رقبتي وأتمخّط دون انقطاع، أفرغ قارورة الماء في جوفي، ثمّ أتهدّ بعمق، أقرص غير بعيد عن برج الحمام، أمدّ ذراعي فينجذب الحمام نحوي، ينفجر البرج بالهديل

والصّفير والشّخير، تجرحني أصوات كثيرة، وتخيّط أصوات الحمام جراحي،
آنس إليها نهاراً، وحينما تبيّت ليلاً تتكالب عليّ الهواجس الوسوس، ها هي
ذي تجد في هذه المساحة الخالية فسحة للتّكاثر، لا يمكنني أن أفدّر
عدها، لكنّها نفسي وروحي وجيشي.

الحاج منور (الوجه الآخر)

(الغلبة للقويّ يا منور)

تمنّيت أن يكون هذا الرجل التّعيس طوع إرادتي من دون توجّس منه، أنا لست كائنًا خرافيا ولا جنّيا عاشقا، أنا كائن بفكر وتخطيط، أقرأ ما يقرأ عقله، وأدفعه إلى هدفنا دفعا، كما يفعل الأب بابنه، وهو يطوّر ذهنه ويدفعه إلى صناعة مستقبل جيّد دونما تسويق، وبترغيب ممتع، كم وددت أن تتماهى رغباتنا، وألاّ يجد مّيّ ذلك الصّراخ الباطنيّ المؤلم، ومن غير أن يجبرني على تغييب ذهنه، لازلت مكنت بمراقبته لفترات طويلة، أدعه على سجيّته، أراقبه بصمت وهدوء. وأكون تبعا لأفكاره دون مساس مّيّ، كنت على حافة تدمير هذا العقل وبناء ذهن جديد يمثّل رغبتى أنا أوّلا وأخيرا، لكن بحكمة ما قلبت اتجاه الفكرة، لاعتبارات القوّة والقدرة والتمكّن، ستكون طوعا لي بسجيّتك يا منور، بحياتك وأشياءك وعلاقاتك، سنخوض هذا المسلك الصّعب بمتعة كبيرة، أتسلّل إلى ذهنك كمخدّر حيويّ يفعل تركيزك بشكل قويّ، وأتسلّل إن أردت إلى كلّ بدنك كمنشّط يقوم عضلاتك كلّها.

أعرفك مهووسا بالحمام المسالم، فماذا تقول لو حوّلت هذا الجيش

المسلم من الحمام، إلى جيش فتاك؟ أليست هذه قوّة مدهشة منّي؟ ثمّ ماذا لو حوّلت مقبرة المدينة إلى مبعث للحياة، وأرسم لك خلالها أوقات مزهرة؟ أليس هذا ضرب من الجنون لدى الذّهن البشريّ؟ وقوّة أخرى من الحكمة والدهاء، يمكنني أن أمدّك منها ما أشاء، أعجبتني زيارتك لصديقك الطّبيب التّفصائيّ يا منوّر، تشكوه منّي بطريقة غير مباشرة، تلغيني تماما وتتهم عقلك بالجنون. أنت بخير، وعقلك بأفضل حال يا منوّر، تماما كما أخبرك صديقك، بقي أن تصدّق حقيقتي حتى تذوب هواجسك، أن تنصت عميقا إلى صوتي، أن يكون جسديّ لقوّتي، وتكون قوّتي لجسديّ، أن تكون أكثر تواضعا لتواضعي، أن تتفق ونلغي ما بيننا من هوة، ألا تبحث عنّي لتراني، وأن تبحث عنّي لتحسّني كلّك، وأنا أوّلا وأخيرا، أسكن داخلك وأعيش بنفسك، ولا وجود لقوّة يمكن أن تلغيني منك.

"كان هناك نوع من العاطفة المرتبطة التواقة، وحنين غرب لعالم

مفقود، نصف منسي، ونصف متذكر"

أوليفر ساكس

الفصل الثاني

الإجماع

سيبقى الهامش هامشا، والواقع واقعا، ما دمنا لم نتقن التغيير بسلاسة، لازلت أبصركم في نفس مواقعكم الأولى، تفكرون بجدية وحرص، لكن هنالك حلقة فارغة، لذا لا يمكن المغامرة بقفزة واحدة، ولا عدّة قفزات، الأمر لا يحتاج إلى تكهن، ولا إلى حظّ، إنّما يجب أن توضع القدم في موضعها الحقيقيّ .

رزقي (ردّ غير متوقّع)

في مساء اليوم الذي زرت فيه المقبرة، كنت على موعد مع صديقي مراد، انتبه إلى شرودي، حاولت مرارا التّركيز مع كلامه، لكنّ الخيط الموصل بذهني وصوته ينقطع سريعا، أسرح بعيدا، أعلى المقبرة، الشّوك، المرتفع، السّلسلة، الحمام، القبور... أمّي، أبي، سلمى، سالم.....
- ذهنك ضائع اليوم يا رزقي.

أجبتّه دون تردّد:

- زرت اليوم المقبرة.

لم يفه مراد بكلمة، زمّ شفّتيه وأخذ يقلّب نظره بيني وبين فنجان قهوته .

يحمل بعينه غيظا دائما تجاهي، هكذا ألفته، موصدا في طريقي باب الوحدة، متحرّزا من مشاعري، يحمل مراد قدرا وافرا من المسؤولية اتّجاه عائلته، وأراني بشكل ما داخل حيّز اهتماماته ومسؤوليته، ارتعشت شفّته كاشفتين عن ابتسامة فاترة، لاحظت من خلال اضطرابه أنّه يودّ الهروب من موضوع المقبرة إلى موضوع آخر، ازدرد ريقه ونظر إلى

البعيد، ثم إلى خارج المقهى أين يتزاحم الناس على بضاعة مفروشة بالطريق، تنهد ثم قال ملاطفاً:

- مشاعر الخلق تتغيرّ سريعاً بالمدن الكبرى يا صديقي، كلما اتسعت الأحياء والبيوتات، ضاقت صدورهم وضاقت عيشتهم .

نظرت حيث عيناه عالقتان، ثم قلت محزوناً:

- تتسع المدن فتتسع المقابر، رحلة قصيرة جداً بين المدينة وأعلى المقبرة، لكنها متعبة وشاقّة ووعرة.

الترمنا الصّمت، ثم تابعت مستفسراً:

- في رأيك يا صديقي، هل يمكن أن تتحوّل الرّوح بعد موت الجسد إلى كائن آخر؟

حوّل مراد نظره ناحيتي مستغرباً وعاقداً ما بين عينيه، ثمّ حرّك رأسه وقال باستخفاف:

- وكيف تتحوّل الرّوح؟ ومن أين جاء هذا الكائن، ماذا عن روجه الأولى التي نبتت فيه، هل ستطردها أم تقتلها وتعيش مكانها؟

رفع رأسه مغرّداً بضحكة، بينما ابتسمت وقلت مستطرداً:

- هل يعيش الحمام بالمقابر؟

مطّ مراد شفّتيه مستغرباً، مزمز قهوته وهو مستغرق في تأمّلي،

وضع كوب قهوته ثم أحنى جذعه ناحيتي وقال بحماس:
- أيّ فلسفة هذه يا رجل؟ هل بتّ تقرأ تلك الخرافات المتعلقة بالعالم
الحقيقيّ، أم بتّ باحثاً غارقاً في الروحانيات؟
دنوت منه أكثر ولم يعد يفصل وجهينا سوى سنتيمترات قليلة،
والطّولة الحديدية المستديرة محصورة بين جسدنا، رفعت قبضة يدي
ناحية الفراغ الذي بيننا، ثمّ فردت كفيّ أمامه ببطء وعينا يتلعبان بيننا
وشمالاً، أطبقت كفيّ سريعاً وهمست موصّحاً:
- وجدت هذه السلسلة أعلى المقبرة ...

حرّك شفّتيه يود مقاطعتي، لكنّه أطبقها سريعاً وعيناه على كفيّ
المرفوعة، ثمّ تابعت قائلاً:

- الأمر لا يخصّ فقط السلسلة، شعور خارق لا يمكن وصفه وأنا أعتلي
مرتفعاً يطلّ على المدينة، ثمّة لغز ما يختبئ هناك، ممّر ضبابيّ ينتهي إلى
مكان مشبوه، ومن ذلك المكان بالضبط ارتفع سرب من الحمام، ثمّ حلّق
عالياً ومال ناحية المدينة.

صمّت قاطعاً انتباه مراد إلى كلامي، رفع حاجبيه، ثمّ اعتدل في جلسته
وتهدّ قائلاً:

- الأمر لا يعدو أن يكون طبيعيّاً وتلقائياً لمن اعتاد جوّ المقابر أو الأماكن

تطلع مراد ناحية يدي المحبوة داخل جيب سروالي، ثم تابع:
 - أما بالنسبة للسلسلة، فالزراح أنها لزائرة أغفلها حزنها على فقيدتها من
 تفقد رقبته قبل القيام عن قبره، هكذا يفعل التواح، يصدع الرأس ويشتت
 البدن وما عليه.

كب ما بالفنجان بجلقه، ثم تابع قائلا:

- يبدو أن السلسلة صيد ثمين جاء بوقته حتى يملأ فراغ جيبك،
 بصحتك... أو بصحتنا جميعا.

بقيت على صمتي، وددت لو أنه قاسمني نفس الشعور، من غير أن
 يستهين بكلامي، تمتيت لحظتها لو أنه كان برفقتي، فرق شاسع بين أن
 نعيش الحدث وأن نحدث عنه، كما أن هناك فرقا بين الجد والهزل،
 والحقيقة مكمومة إلى أن تجد وعيا صالحا ينيرها، قلت هذا بصوت خافت،
 بدا وكأنّ كلامي أثار حفيظة مراد، ترنّح بمكانه وقال بثقة:

- منطلق الإنسان الطبيعي العيش ببساطة والموت ببساطة، هكذا لا بدّ أن
 نحيا على سطح الحياة دونما التعمق الذي يفرق الفكر ويرهق البدن، مرّيا
 أخي على ما شغل فكرك تنجو من الغرق، أو سيحدث لك كما حدث
 لأحد الصيادين، حينما جذبته سمكة لونها ذهبي نادر، سار خلفها ببطء ثم

عثر على سمكة ذهبية ثانية ثم الثالثة ورابعة وخامسة...، واذ به يغرق وعيناه على مئات الأسماك الذهبية .

نظر مراد ناحيتي مبتسما ومعجبا بحكايته، ثم تابع قائلا بحماس:
- هذه هي الدنيا اللعوب، تغريك حتى ترضيك بشيء، ثم تهلكك بأشياء
مشابهة، القناعة بالقليل غنى، والكثير من الملذات هلاك.

أبقيت على نظري معلقا بلامح مراد وهو يأتيني بكلام لم أعتده
منه، أو مات رافعا حاجبي فتابع قائلا:

- ثم قد تلعب بك نفسك وتعود إلى المقبرة مرّات ومرّات ظانًا بوجود
سلاسل أخرى، فأنت متوهم، عش بسيطا يا صديقي ومت بسيطا.

زفرت عميقا وأنا أفنّش بذهني عن الأفكار التي كانت تراودني قبل
كلام مراد، فلم أعر إلا على السلسلة بقبضتي.

صبرينة

(ماما بختة)

أقنح عالمًا جديدًا، أصطدم بعنف شديد مع مفاهيم مختلفة، من الآن لا شيء يدعو إلى القلق، هكذا تقول ماما بختة، لكن فكرة كهذه لغتها شاقّة جدًّا على ذهني، كلّ ما يشكّلني جسدا وروحا يدفعني إلى القلق، لا أعلم إلى متى؟ تقول كذلك ماما بختة وهي تشاهد صمتي وانغزالي:

- كل شيء يحتاج إلى وقت كي يبرأ، بما في ذلك جراح النفس والوساوس، فكّري بالغد الجميل وستنسي ماضيك الحزين.

حكمة وكلام جميل، لكنّها الذّاكرة اللّئيمة، لا يمكن مسحها ولا حرقها ولا كيها، كلّ ما أراه أمامي يشكّل انعكاسا لصور قديمة، أسماء الأشخاص من حولي، أصواتهم، الققط...، وخز دقيق لمجال الذّاكرة يتحوّل سريعا إلى شرارة كهربائيّة مفزعة، كلّ هذا حولني إلى كائن انطوائيّ كثير الانفعال ومخترق من قبل هواجس كثيرة.

ماما بختة، أيّاما كثيرة مرّت ولم يفلح خلالها لساني بمناداتها بأيّ اسم، تحدّثني كثيرا عن ماضيها الطّويل بأفراحه وأحزانه، عجبت كيف لا يزال جبل صبرها قائما، برغم ما ألقي عليه من جلاميد ثقيلة، لم يدكّ ولم

ينصهر، تحدّثني بعد أن تسرح طويلا وهي تهزّ رأسها، عن زوجها سي رشيد، كيف هدّد على مدى سنتين من قبل الإرهابيين، وهم الذين خيروه بين حياته وحياة أهله، أو أن يستقيل من وظيفته في الجيش، لكنّه كان في الأخير مسيرا لا مخيرا.

- طورد كثيرا، وضعوه في الأخير هدفا خطرا يجب القضاء عليه، إلى أن حوصر هو وثلاثة من رفاقه، بعد يومين....

تصمت ماما بختة، أسمع صغيرا أننا يخرج من جوفها، خالط صوتها نجيب مكتوم:

- بعد يومين أرسل رأسه ملفوفا داخل برّته العسكرية.

ترفع فاها إلى السماء متأوّهة ولاطمة فخذها، تزدرد ريقها منتحبة، يعلق بصرها في السماء وكأنّها تشاهد مالا أشاهد، تنسحب من عينيها دمعتان تنتشران بأخايد وجهها، يهتّزّ بدنها وترتجف أطرافها، أقترّب منها وأشدّ على يديها، يتماهى وجعي أمام وجعها هذا العالق بين عينيها رغم السنين الطوال التي مرّت، وكأنّه جرح تفتّق حديثا أمام أعيننا، تضع رأسها على كتفي، ثمّ يستجيب جسدي لهددة جسدها، يتأرجح جسدانا كقطعة واحدة، ثمّ تتابع بصوت خافت كئيب:

- فقدت ابنتي نسرين وزوجها وأولادها الأربعة في حادث مرور، بعدها

هجرتني ابني فؤاد إلى أوربا، ولم يبق لي إلا عبد الكريم.

تفرغ ماما بختة كامل وجعها في جلسة واحدة، ثم تقول بكامل حماسها منتصبية كالجبل، عكسي أنا تماما، أنا التي أمتلك ذاكرة صلبة وروحا هشة، أحتفي بالجميع، كريمة مع الصبية، ما إن أطلّ من باب فناء بيتي إلا وتحلّق الصبية من حولي، يمدّون أيديهم للحلوى وهم ينادون بصوت واحد: - ماما بختة.. ماما بختة.. ماما بختة.

كنت كلما سمعت أصواتهم وأنا غارقة في كآبتي، أروح أدندن من بعدهم وأبتسم.

- ماما بختة.. ماما بختة... ماما بختة.

ثمّ بعد فترة انطلق لساني حرّا ينادي باسمها دون قيد أو نخل.

أحمد

(أنا... لا أحد)

صباح ثقيل، برنامجي لذلك اليوم كان فارغا من أيّ وجهة، فركت عينيّ، ثم قمت متكاسلا ناحية الثّافة، فردت دفتيها، الشّمس تندحرج نحو كبد السّماء، والنّاس يتحرّكون بعشوائية، كلّ شخص إلى هدفه، لأوّل مرة أحسد النّاس على مشاغلهم، قد يتأقّف الواحد منهم من تعبته، وآخر من أوامر رئيسه، وآخر كذلك من أجرته التي لا توفّي حقّ أتعابه الكثيرة، مع ذلك هناك هدف يسكن ذهننا، وطريقا واضحة تسلك لغاية ما، أمّا هذا الدّهن الذي يتمركز داخل رأسي، فهو فاقد لأيّ هدف، ولا غاية أو سبيل واضح يخطّط كي يسلكه، لا حمام في الجوّ أو على أسلاك الكهرباء، ولا قبّعة غاتسبي تغطّي رأس عجوز غريب التّفكير وغريب المنطق...

بقيت لأكثر من ساعة ألّفت يمينا وشمالا، قد يظهر فجأة، عينايا على كلّ منعطف، أمسح الجوّ بعينين متعبتين، لعلّ حمامة ما تنبئني بقدمه، دهشتي لاتزال تحفّق بذهني، ماذا فعلت؟ كلّ هذا بسبب حمامة يا عمّي الرافينو؟ جسد حرّ وذهن أسير، هذا أعقد ما يمكن للمرء أن يعيشه، أن يصبح مسجوننا بين حاضنتين في مفهوم فكرة، بينما لا يلقي بالا

لجسده، رحت أدور وأدور في فلك الغرفة، مثل جرم خرج عن النظام الشمسيّ وتاه في المجهول، مفاصلي ترتعد، لم أعد أقوى على رمي خطوة واحدة، ألقيت جسدي على السرير، لكن ذهني لا يزال يركض ويلهث مثل كلب أحمه الحرّ، متعب في العدم، لا خليّة واحدة فيّ تقول إنني موجود، مادام لا أحد يفكر فيك، فأنت كائن شفاف، تحدّثني نفسي بصدمة، لو تتلّع موتك الآن؟ من سيكرث لغيابك؟ من سيفتّش عن عينيك، من يجبك أصلاً أيّها الحقيّر، لن ينتبه أحد لاختفائك، إلّا إذا تحسّست الأنوف خارج حجرتك هذه رائحة جسدك التّنة، لا فائدة مرجوة منك، بل الكائن الوحيد الذي سيعرف قدرك هو الدود الذي لا يعاف طعم الأجساد الضّالة.

رفعت رأسي وانكشيت على طرف السرير، أقبض ركبتيّ إلى صدري، وأنا أتفرّس في نقطة بعيدة من الغرفة، قهقهة مرعبة تضرب طبلتي أذني، هل تسخر منّي نفسي؟ هل أتسلّى بي وأقهقهه علي؟ لا إلّا الجنون؟

قمت من مكاني مرعوبا، أمسح كلّ شبر من الغرفة، أبحث عن أيّ شيء يقذف بذهني خارج هذه الغرفة، ارتمت يدي على الهاتف، ضغطت زرّ قائمة الاتّصال، من بالقائمة؟ أربعة أشخاص فقط، أخي جلال، أختي صقيّة، لزعر الفاكهاني، وعادل صاحب المقهى المقابل، فكرت بمن

أتصل ولأبي سبب سأتصل؟ أخي جلال يعتبرني نقطة سوداء بحياته، ولا أظنه يفكر فيّ بغير ذهن زوجته، أختي صفيّة، كان آخر اتصال بيننا قبل شهرين، أتذكر كلامها الحزين، لا تحاول الاتصال بي مجدداً يا أخي، وضع الأولاد والعائلة الكبيرة لم يعد يسرّ، بيع كل ما هو ثمين بالبيت وقد وصلوا إلى هاتفي، مع السلامة.... الحقير لزعر الفاكهاني، لا أعلم لم أحتفظ برقمه إلى اليوم، لا حلّ لدي، ضغطت زرّ الاتصال أطلب عادل صاحب المقهى. يرنّ الهاتف، بعد ثوان يردّ، أسمع أصوات الرّبائن من حوله.

- ألو... ماذا تريد؟

- أنا أحمد.

يردّ بعنف...

- نعم عرفتك، ماذا تريد؟

انعقد لساني، لا أعلم حقاً ما أريد، تلعثت...ازدردت ربيقي، تحركت شفتاي تلقائياً.

- هل رأيت الحاج منور؟

جاءني ردّه حاداً وعنيفاً، قبل أن يقفل الخطّ.

- اذهب أنت وهو إلى الجحيم يا ابن الكلب.

الحاج منور

(موقف عجيب)

كنت في كلّ مرة أتخذ قرارا حاسما وواقفا ألا أنزل مجددا إلى المدينة، أحاول أن أنهي الجدل بيني وبين نفسي، بسيل من الحجج المقنعة، لم يعد لعجوز مثلي فقد ماضيه ومستقبله أن يخوض في هذا الموضوع، صفحة وطويت، هنا رفقة الأموات والطيور، لا بدّ أن أنهي ما تبقى لي من أيام، فقط لو يمنحني الله قليلا من الحظ، أن يشعرني بالثواني الأخيرة من حياتي، لا لشيء، سوى أن أجد فرصة أحضن فيها قبر أختي نزيهة، ثم أنام للأبد وتنتهي رحلة هذا الجسد المعذب بجوارها، أنظر إلى برج الحمام، أردد في نفسي، لك الله، "لي خلقك ما يضيعك".

مع هذا كلّ، بعد ساعات قليلة، أجدني وكأنتي شخص آخر تماما، شاغلا مقعدي المعتاد بالمقهى قرب الرّصيف، أرتشف القهوة وأدخن بشراهة، أراقب تحرك الخلق والسّيارات، أتابع بهدوء وسكينة تحلق الحمام من حولي، أتودد إلى حمام الرّافينو، أبتسم بحافز عظيم وفخر بين وأنا أنفث دخان السيجارة عاليا.

- هذا صنيعي، هذا الطائر المدهش أنا من غرس بذوره هنا، حتى أضحي من أجود وأغلى الطيور وأذكاها.

أراجع ذاكرتي القريبة، أتمنّى بقراري الحاسم قبل ساعات.

- كيف صرت هنا وما الدافع من وراء ذلك؟ مزاج متقلب وقرارات غيبية.

فجأة ومن دون أدنى فكرة، شعرت وكأنّ شيئاً ما ينبت ببطني ويخترق أحشائي، ثمّ طفق ينتفخ ويأخذ مساحة أوسع على حساب أضلاع صدري، ألم فظيع يشتدّ سريعاً، أغمضت عينيّ وحشرت رأسي بين ذراعيّ، أتحمّس نبض قلبي داخل أذني، هذا الشيء يرتفع من بطني إلى بلعومي مثل القيء، جيشان قاتل، أشعر بثقل بجسدي وتملّ بأطرافي، ضغط رهيب بجمجمتي، أحسّ وكأني سألفظ جسماً من داخلي، شيء ما يتحرّك بين أسناني، يزول الألم تدريجياً من بطني كما بدأ، لساني يتحرّك، كيف تحرّك دونما إشارة منّي؟

- ارفع رأسك يا منور .

أريد أن أصرخ، أن أوصل فكرة ما إلى لساني، أفضل، أحاول القيام من مكاني، أن أهرب بعيداً، كلّ أطرافي متجمّدة، همس خافت ينطلق من لساني وشفتيّ ويتردّد بذهني.

- ارفع رأسك يا منور.

ارفعه بهدوء، عيناى على نافذة بيت أحمد، أودّ أن أصرخ ناحيته.

- أرجوك أنقذني يا صديقي.

أيّ جاثوم هذا الرّابض على صدري، وأنا في يقظتي، أيّ أثقال
هذه التي تقيد أطرافي عن الحركة، أحرك بؤبؤي في محجريها، أراقب الحمام
وهو يحطّ على رأسي وكتفي من غير أن أحسّ بوجوده، وكأني جسد
مشكّل من خرسانة، أحاول أن أفلت، لكنني ثابت لا أتزعزع، لا عضو فيّ
يستجيب لنداءات عقلي، أنتظر التّادل بشغف أن يأتيني، أن يغضب
كعادته، أن ينفجر في وجهي ويأمرني بالانصراف، أن يزعجه مكوثي الطّويل
على الطّاوله، أو أن يستفزّه هديل الحمام، لكن لا هو ولا أحد غيره انتبه،
وكأني كائن شفاف لا يرى...

يأتيني صوت عبر لساني كفحيح الأفعى:

- ركّز جيدا على التّافذة هناك.

أحدّق بذعر، ينطلق من جوّ الغرفة قطّ يقبض على جمجمة

حمّامة .

يأتيني الصّوت مجدّدا:

- قد بدأنا.

تنطلق حمامة أخرى وترتفع عالياً، يظهر خلفها وجه أحد، ثم بعدها
تحرّر جسدي من رباطه، أفرّ مسرعا، يرتطم جسدي بأشياء لا أدري ما
هي، أسمع صوت التادل من خلفي لاعنا وساخطا، أفتح فمي، أحرك
لساني، أتأكد من سلطتي عليهما، أصرخ بفرح.

- نجوت.. نجوت... نجوت.

الحاج منور (الوجه الآخر)

(لا نَدَّ لي)

لا يمكنني أن أفخر بقوتي أمام ضعف أيِّ كائن، وما دُمت لم أتقن معرفة غيرك يا منور، فلا طائل من افتخاري بغلبتك، هذا أمر محسوم منذ زمن، لكّني دوماً أعتقد أنّي أعيش بك، تهمني كلّ خطوة تخطوها، كل شعور ينتابك، لأقول بكلّ وضوح، أنت عرشي وأنت نعشي، قريبان جدًّا، لكن كأنّ ما بيننا مسافة طويلة، كلّما حاولت الدنو تنفر منّي، حتى كدت تلفظ أنفاسك في مرات كثيرة، فأقذني وأقذك من هلاك وشيك.

أمر بسيط لو تفعله سنعيش من بعده بسلام، أنا لست عدوك ولا خصمك، ولا يمكن في كلّ حال أن تكون ندًّا لي، لو نزيل ما بيننا من خوف، لو نصبح على ثقة تامّة، لو نزيل ما بيننا من ضباب، ثمّ نحقق في بعضنا بحبّ وسلام وهدوء، أيّ قوّة يمكنها بعد هذا أن تغلبنا يا منور؟

لا يمكن أن تشدّ طرف الحبل بضعفك، ولا يمكنني أن أشدّ الطرف الآخر من الحبل بقوتي، لتتخلّ عن الحبل وتتعانق.

.....
" دائماً قم بما تخشى أن تفعله "

مرالف والدو إيمرسون

رزقي

(حماس متجدد)

استغرقت وقتا طويلا أفكر بكلام مراد، فكرة مزاجية تقرأ على أكثر من وجه، أرى ما قاله أمرا منطقيًا ومشروعًا، وإن أنصت إلى هواجسي، ضربت فكرته عرض الحائط، وسقط كل كلامه في السطحية التي لا جدوى منها، الأخذ بالمسلّمات ينعم على العقل بالراحة المطلقة، دونما الخوض في فرضيات ومعارك نفسه وذهنية مرهقة، بديهية هي الحياة البسيطة، لكنّ الجدل يخلق متعة تعزز قيمة الوعي البشريّ، ما حدث يومها لم يكن أمرا بسيطًا، أكاد أجزم لو أنّ مراد اعتلى نفس المرتفع، وشعر بما شعرت به، حتماً سيقف كما وقفت مذهولًا وحائرًا.

كنت في بداية الأمر متحمّسًا لدعوته إلى مرافقتي ناحية المقبرة، نسجت تخيّلات كثيرة قبل لقائه، كنت سأستأنس بوجوده وكلامه، وكنت سأوسّع مجال حركتي داخل المقبرة، ثمّ أسير نحو تلك الطريق الضيقة والمريبة، وسأصل إلى أقصى نقطة ممكنة فيها، وأعبر رفقته ناحية المكان الذي ارتفعت منه طيور الحمام، وأدراً الشكّ باليقين، لكنّه في الأخير

لم يترك لي مجالاً للجدال، وظلّ يصدّ كلّ فكرة أسوغها، إلى أن تلاشى الحماس واطمأنت إلى حججه.

لكنّ الفكرة مثل السحابة، ستبقى عالقة، إذا لم تتلاش أمطرت، وها هي ذي سحابة فكرتي لم تتلاش، إنّما أبعدها الرّيح عن ذهن مراد، وهي تتشكّل قائمة الآن بذهني، هناك سرّ عظيم بالمكان، ثمّ لا زال ذلك الشّعور يلاحقني إلى الآن، لازلت منجذبا إلى ذلك المرتفع، ولا زلت أستشعر أنّ عينا ما تترصدني، لو كان حقًا مكانا فارغا من الشبهة، لغادرته وذهني منسلخ من تفاصيله وصوره.

نمت ساعات قليلة، ظلّت صور المرتفع والمدينة وما حولهما تتكرر في ذهني، تتكرّر دون توقف، وحلمت بالسحابة التي كنت أحدث بها نفسي وهي تمطر فوق رأسي بغزارة، بينما يقابلني مراد، تتحرّك شفاته دونما صوت، وظل يرفع يديه وينزلها وعروقه تكاد تنفجر، يرغي في صمت، ويتسرّب من جوفه شيء مثل الضباب، يغلبه ريح المطر المنتصب حولي، انتظرت بشغف كبير أن يحلّ المساء حتّى أُنقل له حلمي، ولما كان، صار حلمي مجرد دعاة تسلى بها إلى غاية أن افترقنا.

صبرينة

(ذكريات عالقة)

وضعي لم يعد يحتمل، هكذا أراني بعيني وعيني ماما بختة، وحتى بأعين ابنها عبد الكريم وضيوفاها الكثيرين، الوقت الذي يمرّ هنا لم أفلح في ضمّه إلى خانة النسيان، إنّما يركض سريعا في غفلة مّي ويتموضع في خانة الاشتياق للماضي، أرى الحياة هنا مصطنعة، وحتى الكثير من المشاعر، ينتابني دوما إحساس أنّ ماما بختة رغم رقّتها وطيبتها، بدأت تملّ من وضعي، أتأقلم ساعة، ثمّ ينقطع حبل الرّجاء حينما يلدغي الحنين وأنكبّ على حزني، تلاطفتني، تحاول أن تهرب بي إلى مشاغل أخرى تجديني فيها أكثر هدوء، تمنحني فرصة للطبخ، رغم انعدام خبرتي، تقف بجانبني تحركّ يدي من صحن إلى آخر، وتريني بأناملها كميّة التّوابل التي تناسب كلّ أكلة، تعدّد لي أسماء الزّهور في حديقتها، أمسك عنها أنبوب الرّي موجهة إياه إلى تربة كلّ أصيص، تحركّ أناملها مداعبة ساق وأوراق كلّ زهرة، تشرح لي مبتسمة علاقتها بكلّ أصيص، تحاول بطريقة ما تدريبي على التّأقلم، تمنحني في كلّ مرّة مساحة من الحرّية في بيتها، تدعوني إلى التّسوّق رفقتها، تقترح سلعا يمكن أن تكون إضافة لبيتها، تسألني عن حاجة تقضيها

لي، أو أيّ شيء أرغب به، من لباس أو حلوى، كنت في كلّ مرّة تدعوني فيها لاقتناء شيء ما أحرك رأسي معتذرة منها بلطف، تلح عليّ مبتسمة كعادتها فأكرر اعتناري:

- ستكون فرص أخرى، اقتني أنت اليوم ما ترغبين باقتنائه.

كلّ هذا لم يسعف روعي الهشّة على النموّ من جديد.

في صبيحة يوم دافئ اصطحبتني ماما بجثة رفقتها بطريق ممتدّة طويلاً، صُفّت حولها بضائع مختلفة، ظللنا ندرع الشوارع منتبهين إلى زحام السيارات، نقبّ أعيننا بين المحلّات والأرصفة المكتنّزة بالنّاس ونداءات الباعة التي لا تتوقّف، تمسك ماما بجثة بيدي، تهمس في أذني متآففة.

- الرّجال هنا أعينهم حادّة، لا راحة للسير أو السّؤال والشّراء في وجودهم، لا حلّ غير سوق بوجيمة، رغم قلة السلع إلّا أننا سنكسب راحة كاملة، سوق للنّساء فقط .

لم أكن أعلم من قبل أنّ النّساء بإمكانهنّ انتزاع قطعة أرضية تخصهنّ وحدهنّ فقط، التفتّ ناحيتها وقلت بدهشة.

- ومن يبيع؟ وكيف لا يجروّ الرّجال على التسلّل إلى هناك.

ردّت ماما بجثة بثقة:

- هناك نسوة لهنّ باع طويل في التّجارة، أمّا بخصوص الرّجال، فلا أحد يملك جرأة الاقتراب، والّا ...

رفعت يديها مفرجة ما بين أصابعها وهي تحرك أطرافها في الفراغ وتزرم شفقتها .

ابتسمت بطيبة خاطر، ضمت أصابعها بين كفيّ، ثمّ لثمت يديها وأنا أحدق في عينيها الحالمتين ومحدثة نفسي:

- لولاك يا ماما، أيّ مصير كنت سألتقى، في وسط هذا الصّحيج، وهذه الحياة المهمة ...

فجأة ارتعدت بمكاني وأنا أحدق إلى الأعلى بالفراغ، سحبت بذهني سريعا صورة صهيب وزكرياء وهما من حولي ثمّ تلاشت، زفرت وكانّ حريقا اندلع بأحشائي، تأوّهت وقلبي محزون على مصيرهما ...

لم أنتبه لنفسي إلّا وأنا مل ماما بخنة تمسح دمعتي، ثمّ وجسدي يغرق في حضنها.

لم تنبس، كانت قد قرأت حالي كعادتها، شبكت أصابع يدي بين أصابع يدها وجذبتني ناحية حُرمر مزرکشة معلقة جانب ترعة محلّ القماش،

قلّبت الألوان بين عينيها ويديها، ثمّ سحبت واحدا وقربته إلى وجهي وقالت بحماس:

- هذا يليق جدا ببشرتك ويكمل جمالك، وكأنّه صنع خصيصا لك.

لفّته إلى بعضه من غير أن تنتظر ردّا منّي، دخلت المحلّ وبقيت أنا خارجا أتابع حديثها مع البائعة، ثمّ جاءتني وهي منتشية بفرحة بادية على وجهها، رفعت ناحيتي الكيس، وقالت بسرور:

- بصحة الغالية، تبليّ ويخلف الله لك.

سرنا نلتفت يمينا وشمالا، نقّلب أعيننا بين المحلات والبضائع المنتشرة على الرّصيف، نداءات البائعات أخفض حدّة أو تكاد تكون منعدمة بهذا السّوق، على عكسها تماما في أسواق الرّجال، التي لا يمكن من شدّتها أن تمنحني فرصة الانتباه إلى كلام ماما بختة.

في الأخير طفقنا عائدتين ناحية الشّارع الذي نقطن فيه، كان باخر الطّريق محلّ لبيع المصوغات، على واجهته الرّجاجة يلمع حلّي من ذهب وفضّة من مختلف الأحجام والأشكال، مسحت المكان بعينيّ، ما كدنا نتخطّى المكان، حتّى انتهت إلى شيء صدمت كيف أنّه لم يأت على بالي

منذ فترة طويلة، رفعت يدي ناحية رقبتى أفتش عن سلسلة كانت أول وأتمن هدية منحها لي المعلمة نور .

تسارع نبضي وكنت سأخفي انفعالي عن نظر ماما بجتة، لكنني لم أفصح إلا في كتمان سرّ اختفائها، أوقفنتني واستدارت أمامي قائلة بقلق:
- يمكننا الجلوس إذا تعبت، هل تريدان أن أجلب لك ماء أو طعاما؟
ربت على كتفها وأنا أهمّ بالمشي، وقلت مصطنعة ابتسامة:
- لالا مجرد دوّار خفيف، لم أعتد المشي كلّ هذه المسافة.

أحمد

(حوار معي)

ما رأيك أن تدوّن كل ما عشته؟ هكذا يمكنك أن تقتل فراغا كبيرا، وقد تجد ما تشغل به نفسك في الأيام المقبلة .

أحدت صورتي وأنا أقابل مرآة مكسورة كنت قد ثبتها في جدار قرب النافذة، هكذا حتى يتسرب بعض الضوء وأنعم بمشاهدة جانب من صورتي الحقيقية، أغمض عينيّ أتكلّم بصوت مرتفع حتىّ أسمعني بشكل واضح، ثمّ أفتح عينيّ، أحدق في ملامحي، وأعود وأغمضها مجددا وأنا أردّ على كلامي الأوّل:

- نحن اثنان أنت وأنا، أكتب عنيّ وعنك أيّ شيء.

- بماذا أبدأ مثلا؟ كائن مهزوز مثلي من أين سيأتي بالأفكار؟

- هل نسيت أنّك كنت في فترة ما قارئاً جيّداً؟ أفكار كثيرة مخبأة في صندوق ذاكرتك، انفض الغبار عنها وحاول أن تصوغها في فقرة أو اثنتين، هكذا بعدها ستسرب وتتوالى أفكار جديدة إلى ذهنك.

فتحت عينيّ وأحנית رقبتى مصغيا ومومّها نظري إلى بطني، وقد نَبَّهني صفيها على أنها خاوية منذ أكثر من يوم، رفعت رأسي، تفقدت من جديد شعر رأسي الأشعث وملامي الذّابلة، ولون بشرتي الذي استحال إلى ما يشبه لون حبة ليمون ناشفة، أطبقت عينيّ، ثمّ صحت مستفسرا:

- وكيف أكتب وأشغل ذاكرتي وأنا بطن فارغة؟، هذا يستوجب سعرات حرارية كثيفة.

- لست أحسن ممّن كتبوا عن الجوع وهم أصلا جوعى، هل نسيت كنت همسون وروايته الجوع التي كنت مولعا بأحداثها؟ ما تعيشه أنت الآن يعتبر رفاهية مقارنة بحياته القاسية، مع ذلك كتب بصدق واستطاع الخروج من حالته، حاول أن تفعل أنت كذلك.

- صياح بطني مزعج ويشتت الانتباه، ما رأيك لو أقدم اقتراحا؟

- تفضّل.

- ادّخرت ما يقارب ثلاث مئة دينار، أحفظها في منديل بثلاث عقد، يمكنني فكّها وأخذ نصف المبلغ، هكذا حتى أُمّح لبطني بعض الدّفء، ويمنحني بالمقابل هدوء وقدرة على التّفكير.

- خذ ثلث المبلغ واترك الباقي للأيام المقبلة، بطنك لن يتوقف عن الصّباح، وستكون مجبرا على عقد صفقات جديدة مع بطنك حتى تتمكن من الكتابة .

- اتفقنا....

قبضت يدي على مئة دينار وركضت بها ناحية الشارع، تجاوزت محلات الحلويات والمطاعم والجزارة، كأنها غير مرئية لي، لابد أن أرجع بكيس أثقل من مئة دينار، رحت أفكر وأنا أمسح ناظري على اللافتات وواجهات المحلات، لا شيء لحد الآن يروق لي، بل لا يروق بالمئة دينار، بعد جهد مضن فقدت ما تبقى من طاقتي، لكّتي عدت بكيس كما كنت أمّي نفسي وأرجو، ثلاث باغيت خبز فرنسي، قارورة ماء، مثلثي جبن وبعض حبات حلوى.

الحاج منور (حدث أشبه بالموت)

- تقول إنك نجوت، نجوت من ماذا؟

أصبح الصوت الآن أكثر حدة ووضوحا، ينتابني ضيق شديد، كأنّ وتدا مغروزا بصدري، أو كأنّ نبوتا يحفر داخلي، ثمّ وأنا بذرة ستنفلق إلى نصفين لتعدم بها الحياة نهائيا، خمنت أن أجري مسحا دقيقا لكامل جسدي، فشعرت بضحكة خافتة مثل الأنين اهتزت لها أضلعي واعترتني بعدها رعشة شديدة وحمى باردة، ثمّ ذلك الطنين المرعب وذلك الهمس المخيف .

- إذا كنت تملك المال حقا لأجل الفحص، من سيصدّق جنونك؟ ثمّ حتّى وإن صدّقوا أنّ جسما يسكن داخلك، فلن يكون ردّهم أوضح أو أفضل من ردّ صديقك الطّبيب النفسيّ، أنت شخص متوهّم يا منور.

- ماذا تريد؟

- أريد أن أكون أنت، أنا جوهرك وصوتك وكلّ أفعالك.

- وأنا ماذا سأكون حينها؟

- أنت صورتي فقط.

رحت أدير كلامه برأسي، أتخيلني شخصا معدما أو كآلة توجه عن بعد، كرزت على أسناني وأنا أستشيط غضبا، أغمضت عيني واستحضرت صورة ذلك الشيء داخلي، صفحة سوداء قائمة، مرسوم عليها بخط أبيض، عينان كعيني قط، أنف معقوف وشفتين مثل خطين سميكين متوازيين، أتصفح ملامح هذا الكائن البهلواني، ثم وبشكل تلقائي وجدتني أنفجر ضاحكا وأضرب كفا بكف، حدث هذا وأنا مقرص قرب برج الحمام، وعلى كفتي تحط أربع حمامات، وقتئذ وأنا منتش بهتته، طراً أمر مهول، تسمرت بمكاني إزاء صعقة كهربائية أعنف من ذي قبل، صوت كصوت دوي انفجار ضرب طبلتي أذني ثم انقطع تماما، فتحت عيني على اتساعها مدعورا، أحسها كجمرتين متقدتين، تكادان تقذفان بؤبي أمامي، لكن هناك شيء ما كان يُذف أمامي، واحد... اثنان ... ثلاثة... أربعة، الحمامات اللواتي كن يتراقصن على كفتي، ألقيت أمامي أجسادا يابسة، ريش منفوش وأعناق ملتوية، أحاول استيعاب الأمر، أغلق عيني بقدر ضئيل، أكرر ذلك، جفوني كأنها معدن صدئ، تكاد تنطبق على بعضها، خطّ ضئيل من الضوء، رموش عيني كشباك نافذة مغبر، أصبح، بينما

حنجرتي صندوق مغلق، ولساني عضلة مخدّرة، وشفّتي مطاط محترق،
تتصلّب كلّ قوائمي، كأنّها سكرات الموت، يستدير رأسي، تستطيل
رقبتي، يقابل وجهي السّماء، فاغرا في، أنادي في أعماقي عن أختي نزيهة،
يتهاوى جسدي على الأرض مثل غصن شجرة يابس، أستسلم تماما
لضعفي، يأتيني الصّوت مزجرا، صوت الجسم الوحيد الذي صرت منتبها
لوجوده:

- أخبرتك ألاّ تتحدّاني.

أحاول الانقباض عليه بأخر نفس بقي لدي.

أردّ بأنين مكتوم:

- ما دمت تعيش بي ستموت بي.

يأتيني الصّوت هادئا مستكينا:

- نم يا منور، رحلتنا لاتزال طويلة، طويلة إلى حدّ لا يمكنك تصوّره.

الحاج منور (الوجه الآخر)

(فرصة أخيرة)

القساوة ترسم لك آفاقا مجهولة يا منور، كم وددت أن أتابع معك حديثي بكلام متزن، ألا نكون عدوين بأبعاد صفرية، لكن سبق حكمتك عنادك وجفلت عنك حقيقتك، مسافة ضئيلة كانت تفرق بيننا وبين الموت، وددت لو كسبتك سالما، متعقفا عن مواجهتي، لكنك صدمتني يا منور، كم مرحلة مررت عرفتك خلالها عن نفسي دونما تعنيف بين، شطبت من ذهنك كل النظريات التي تزعم أنني لست بكائن مادي، ثم إني لست هلوسة ولا مرضا ناجما عن الفصام، ولست بذهان، إنما أنا حقيقتك المثلى، ولا يمكنك بأي حال الاعتراض على وجودي داخلك، لا أجد صورة سننتهي عليها بالتوافق التام، غير صورتنا العظمى ونحن فوق رقاب الخلق، ساعتها ستكون مدينا لي بالكثير، تلك حظوتك الكبرى، أقل درجة فيها أن أمنحك متعة الانتقام ممن خذلوك ولم يؤمنوا بأهدافك، ثم هذا تخطيط بنيته منذ زمن طويل، ليصبح هدفي أكبر من وعيك، ويوازي عمرك، تذكر ما قيل عن صدمة القابلة يوم ولادتك، وكلام جدتك عنك... تفقد كل شريط حياتك، ستجدني أنا فيه... معك.

هرمت يا منور، ولان عودك، ثم نحن قوتان متعاكستان، بلغت
قوتك المدى ثم انهارت، وقوتي كحُم تغلي وتندلق لتكتسح كل ما وُجد
بطريقها وتدمره، لم يبق الكثير من الوقت، وأنا لم أعد أحتمل تقديم المزيد
من الفرص، ولا أظن أن جسدك صار يحتمل المزيد من الأذى، سأصمت
الآن كصمت جبل عظيم تتدافع بجوفه حُم عظيمة، إذا ما فاضت أغرقت.

"الجماهيرُ لم تكن في حياتها أبداً عطشى للحقيقة، وأمام الحقائق التي
تُترعجهم، فهم يحولون أنظارهم باتجاهٍ آخر، ويفضلون تأليه الخطأ إذا ما
جذبهم الخطأ، فمن يعرف إِيامهم يُصبح سيِّداً لهم، ومن يُحاول قشع
الأوهام عن أعينهم يُصبح ضحية لهم"

غوستاف لوبون

رزقي

(مشهد عابث)

أنا متورّط بمسألة علقت في ذهني، جرّبت عشرات الطّرق كي أتخاشى التّفكير في هذه العمليّة المعقّدة، لكنّها تُفزع مثل الجرس برأسي، تمسّ عليّ الأمر إلى أعسر حال، حتّى بتّ أتلافى لقاء صديقي مراد، وإنّ أصرّ على لقائي، أجنّبهُ بكل الحيل التحرّش بمزاجي، يرمي صتّارة استفزازه حتى يصطاد غضبي، فيخذله دوراني حول طعمه من غير أن أعلق، ظلّ يكرّر ذلك، يروح ويحيء بكلامه بين الدّعابة والجدّ، فأبدّد كلامه بضحك مصطنع، لكن في حقيقة الأمر، كان كلامه يشحن قلتي إلى أن يثقل رأسي بالصّداع، فأرتقي إلى غرفتي محزونا ومكهربا ترافقني تلك المشاهد، سيل جارف من التعابير، أظلل أوّلّف وأوّلّف خيالات إلى أن يصبح رأسي كعبوة ناسفة مهّددا بالانفجار في أيّ وقت، كنت بادئ الأمر حينما يجافيني النّوم أركن إلى طاولتي الصّغيرة، أسند مرفقي وسطها وأرقد ثقل رأسي على كفيّ يميني، ثمّ أستغرق في تدوين تلك التّخيّلات على مسوّدة أمامي، سيّارة "مستطيل"، خطّ سميك ملّتو "الطّريق إلى المقبرة"، خطّان ينطلقان بتواز ثمّ يميلان تدريجيّا إلى نقطة تقاطع "لافتة المقبرة المتآكلة"، دوائر بأحجام

مختلفة" المقابر"، خطوط متشابكة "أشواك حول المقبرة" خطوط أفقية عشوائية "سياج حول المقبرة"، مستطيل بقاعدة مفتوحة "المرتفع الصخري" خطّ ملتو وسط القاعدة "السلسلة"، ثلاثة خطوط متوازية تمتدّ إلى آخر الورقة "المدينة" خطّان منعرجان ينتهيان داخل قرص ذي لون غامق "المسلك الصّعب المتّصل بالمكان الغامض" رؤوس زوايا حادّة معلّقة فوق المشهد "طيور الحمام".

مع كلّ هذا يمرّ الوقت بطيئا، يخفّ رأسي قليلا فأغفو على كفيّ، ثمّ يلدغي الألم من جديد معلنا عن انسداد ذهني، من خلفي قصبات أقلام فارغة، عبوات ناشفة وعشرات الأوراق المتناثرة بمشهد منسوخ، ثمّ لم يمض وقت طويل حتّى وجدتني أحفر سطح الطاولة الخشبيّة بمسار سميك، حدث هذا بعدما فتّشت بكلّ مضرب بالغرفة ولم أعر على ورقة واحدة صالحة، أيّ هوس هذا الذي يشنّت ذهني؟، تدرّبت يدي سريعا إلى غاية أن أصبح لها ذهن منعزل عن رأسي، يستحيل أن أفعل هذا بوعي وفي هكذا وقت وجيز، أرضيّة الغرفة وسقفها وجدرانها الأربعة أصبحت كتّاشة كبيرة، خطوط ودوائر بألوان مختلفة، تشطيب، جداول ورسومات مكرّرة.

أفقت في إحدى الصّباحات على طنين مزعج يضرب أذنيّ، دلفت

إلى النَّافذة، منحت الغرفة بعض الصَّوء، ثمَّ تسمَّرت بمكاني مشدوها ألوي
عنقي يمينا وشمالا، لا أعلم كم مرَّ من الوقت على حدوث كلِّ هذا، فوضى
عارمة، اشترهت علبة سجائر كاملة على بطن فارغ، رحمت أراجع ذهني،
قلت بصوت مؤثَّب مسموع:

- أنا من فعل هذا.

انتهيت إلى نظرة سيِّدة تتطلَّع ناحيتي في حيرة وهي تدرع الطَّريق
متَّجهة ناحية بوابة المؤسسة التَّربوية، تفقَّدت هيئتها بينما كانت قد كسرت
نظرها عني. قلت وأنا أتزحزح عن النَّافذة:

- نعم شفيت من صدمتها، وعادت تحرك رجليها كأنَّ شيئا لم يكن، تراها
قد مسحت ذلك المشهد من رأسها، كم وددت أن أخبرها أنَّني كنت
شاهدا على الحادث بكلِّ تفاصيله، كيف اندفعت السيَّارة نحوها، ثمَّ
وجسمها الثخين يرتفع عاليا ويرتطم بالأرض، لكنَّها على كلِّ حال شفيت...

وأنا صدمتي أعنف، أخرجت السَّلسلة من درج تحت السرير، ثمَّ
رحمت أقلِّبها بين يدي متلمِّسا حلقاتها ومحدِّثا نفسي بغيظ:

- كيف تحوَّلت سريعا إلى كائن يحمل وعيا متأكلا، هذا سحر عظيم، قد
تكون هذه السَّلسلة تحمل سرا خطيرا يثير في هذا العراك النفسيِّ

والتخبُّط الذهنيّ، قد يكون لها عسس من العفاريث، أو لا أعلم.. قد يكون مراد صادقاً في كل ما قال.

صبرينة

(رسالة المشرفة نور)

فتشت عنها طويلا بذهني قبل حقيقتي وأمتعتي المرتبة بخزانة ماما بختة، لكن لا فكرة ولا دليل يرشدان إليها، كنت متأكدة أنني خرجت من الملجأ وهي حول رقبتى، بنيت الأمر على فرضيات كثيرة، ربما تكون قد انفكت وأنا بالطريق، لم أستطع ضبط آخر وقت ضاعت مئى فيه، ولا حصر المدة بالضبط، ما دامت قد اكتشفت ضياعها فجأة، فالمجال مفتوح لتأويلات كثيرة، فتحت باب الخزانة الخشبية، تفقدت مساحة الرف المصنفة عليه أمتعتي، جلت بناظري مدققة بين الصفوف طولا وعرضا، قطع كثيرة استغنيت عنها بعد أن اقتنت لي ماما بختة قطعا أخرى جديدة، كأنتي أجد نفسي اليوم أكبر منها بكثير، رغم أنه قبل أشهر قليلة كانت تمثل لي كنزا يصعب الاستغناء عنه، قد تتغير الأمزجة فتتغير معها نظرتنا لكل شيء، أحصر كفى بين طبقات الكسوة المعدلة وأنقلها بجذر على الفرشة بالأرض، تراقبني ماما بختة في صمت، أقرأ سؤالا عالقا بين عينيها فأجيبها مبتسمة:

- اشتقت إلى ملابسى القديمة، أحبّ الرّوائح العالقة عليها، حتّى ألوانها

الباهتة تبدو زاهية بمنظور الذاكرة.

انسحبت ماما بجثة من خلفي، وكم تميّت انسحابها قبل هذه اللحظة، شقّ عليّ جدا أن أحبس دموعي، مع كلّ فستان، تخطفني ذاكرتي لتعيد عليّ مشاهد مع كلّ قطعة، بأجواء لا توصف، المشرفة نور، وعشرات البنات من حولي، تتراقص مثل العرائس مبتهجات بفساتين جديدة... أفتح عيني، أفرك جبتي ثم أضرب عليها بلطف موجّهة نفسي.

- قلت أنني سأنسى، رجاء يكفي... يكفي.

وأنا أحاول إشغال نفسي بفكرة أو موضوع مختلف، رفعت طية من فستان قديم، وإذ بنظري يصوّب كالسهم ناحية شيء آخر غير ما كنت أفنّش عنه، مستند الخروج والطرف والمذكّرة.

ألقيت الفستان أرضا، فتحت المستند، غمرني نفس الانطباع الأوّل، من تفاهة موضوع الأسماء التي يجدر أن تكون من عائلتي، رفقة عناوينهم وأرقام هواتفهم، استنشطت غضبا أكثر من ذي قبل، هذا هراء وإهانة واستهتار مدروس، لماذا لم يعكس الوضع مثلا ونحن أكثر ضعفا من هؤلاء الذين يسمّونهم عائلة؟، كان الأولى أن تتواصل إدارة الملجأ بهم، وتقترح عليهم التكلّف بنا، ثمّ ننقل بكرامة ونكمل حياتنا تحت سقف مرجح

ورحيم ، قمت بتمزيق المستند وأنا أكرّ على أسناني ونار الغضب تضرم داخلي، استحال المستند قطعاً صغيرة، مع ذلك لا شيء يشفي غليلي، لممت تلك القطع ووضعتها داخل كيس، ثمّ دسسته بجيبي، في حين كان الدور على الظرف، قبل أن أطلع على ما جاء فيه، كان تأنيبي للمشرفة نور كمضغة عالقة بحلقي، أقول تارة إذا كان القرار حاسماً من إدارة الملجأ، فما ذنب المسكينة، وتارة أخرى أقول لو أبدت موقفاً من الأمر أمام الإدارة، فلا بدّ أنّ لها صوتاً مسموعاً مادامت هي المشرفة، رفعت طرف الظرف إلى الأعلى، هزرته إلى أن أفرغ ما بداخله على الفرشة، كانت أوراقاً نقدية إضافة إلى ورقة مطوية، أقيمت على الفرشة، لممت الأوراق النقدية إلى بعضها، وضعتها جانبا وعيني على الورقة وما تحويه، فردتها أمامي ورحت أقلبها وأسوي حواشيها، اعتدلت في جلستي متربعة وهي بجري، ثمّ بانتباه شديد طفقت أقرأ:

" حبيتي صبرينة، جرحي لن يندمل أبداً بعدك، أملي مكسوف وقلبي ينبض بالوجع، حتى لا تقولي يوماً ما بأنّي تركتك دون انتباه إلى ضياعك ووجعك، أنا أشدّ ضياعاً منك وأثقل وجعاً، علمت بقرار تشطبيكم من الملجأ بحوالي أسبوع قبل أن يشاع الخبر بينكم، حاولت بكلّ ما أتيت، بكيت ترجّيت تذللّت...، فعلت كل ما أتى على ذهني من طرق لإطالة

مدة بقائكم بالملجأ، لكن ككل مرة يردّ المدير إنّ القرار فوقّي ونحن ملزمون بالتطبيق فقط، لا مجال للاستئناف أو الاحتجاج، راسلت من قال إنّهم أصحاب القرارّ فوقّي، لم يردّوا أوّلا ولا ثانيا، لكنهم ردّوا ثالثا بعدما صرخت وهدّدت وقبّحت قرارهم بأسوأ العبارات، وأي ردّ؟ توبيخ شديد اللهجة واقتطاع من مرتبي بعد مثولي أمام مجلس التأديب، أقول لك هذا وأنت في تلك اللحظة لم تكوني على دراية بما أكابده من وجع وظلم ...، تمّنت فقط لو كان لي بيت آوي إليه حتى تشاركني هدوءه وراحته، لكنّي يا حبيبتني أنا لي ماض متعب، أنا مثلك لا عائلة من خلفي تنتظرني، وجودي بين جدران الملجأ طيلة الوقت لم يكن خيارا كما كنت أخبرك دوما، إنّما كان لزاما وحلا وحيدا، أنا عشت في أحضان عمّي الوحيدة منذ ولادتي، ولما حانت ساعتها وتوقّيت، تكالب على بيتها رجال أجهل أغلبهم، منهم من يقول إنه من أحفادها، ومنهم من يقول إنّهم من أبناء عمومتها، ساعتها كان الأمل ضئيلا في أن تعيد لي والدتي شيئا من أمومتها الرّمزيّة وتحميني من شرّهم، لكن وبعد أن وصلت إليها بشقّ الأنفس كان ردّها خائبا وصادما.

- اذهبي عني واحذري العودة مجدّدا، لو يسمع زوجي باقتحامك حدود بيته سيشرّب من دمك ودمي..

هرولت بعدها إلى بيت عمّي أستجدي وأرجو من الرجال المتصارعين أن يمنحوا لي فرصة واحدة فقط، أضّمّ فيها أمتعتي وأنصرف نهائيا ...

هذه حالي يا صبرينة، وذلك هو ماضيّ المشؤوم، وإني آثرت كتمه عنك حتى لا يصيبك سهم حزن من قبلي.

فصبرا، وتحية لك أينما كنت وأنت تقرئين هذه الرسالة، ثم سيصبح لي حلم واحد بعد غيابك، أن ألتقي بك مجددا، وتكون هذه الرسالة ذكرى طيبة نسترجعها بفرح."

حييتك نور

كانت أناملي تقبض على الورقة بقوة، شاخصة بصري، ودمعي ينهمر غزيرا، يفتت العبارات ويحترقها، وجسد ماما بختة يهددني ونحيبها المكنوم يحترق سمعي.

كنت عقب هذا بجاجة ماسة إلى وجود ماما بختة بجاني، لتكون أكثر التصاقا بي، كانت رسالة المشرفة نور بمثابة السهم الذي أسقطني أرضا وأفرد من وجداني آخر قطرة صبر، شرود شبه تام، تتكالب عليّ

الهساحس، أفرص بمكان منعل ممرجة جسدي في صمت، نظري عالق في
اللاشيء، تحدّثني ماما بختة وهي تناولني ملاعق حساء.

- هل أعجبك؟

أهزّ رأسي إيجابا مبتسمة.

تكرر السؤال مرارا، إلى غاية أن أمتنع عن الأكل.

في اليوم الثالث بعد الحادثة، اقترحت علي ماما بختة أن تذهب بي
إلى طبيب نفسي، ابتسمت كعادتي وأنا أهزّ رأسي، أعادت في اليوم
الموالي الاقتراح بصيغة أخرى.

- غدا سنذهب إلى الطّبيب يا صبرينة، سيكون وضعك أفضل.

ثمّ لم تجد منّي غير نفس ردّة الفعل السّابقة.

لا أدري كيف وجدّتي أدخل العيادة، رغم أنّي كنت عاجزة عن التّعبير
وقتئذ، لكنني أتذكر تفاصيل ذلك اليوم لأسباب كثيرة، كان يوم سبت،
ذهبنا رفقة عبد الكريم، أوصلنا إلى غاية باب العيادة، ثمّ طلب من ماما
بختة مهاتفته لحظة انتهائنا من الفحص، مباشرة بعد دخولنا العيادة، كانت
في استقبالنا سيّدة ودودة، بذراعين مفتوحتين وابتسامة لطيفة، رحّبت بنا
ثمّ أشارت إلى دفتر أمّها، دوّنت اسمي وراحت تشير إلى غرفة صغيرة

على يمينها، ترشدنا لافتة زرقاء تأخذ شكل سهم، مدوّنة عليها عبارة "جلوس للنساء"، تؤثث الغرفة مجموعة من الكراسي الحديدية مسنودة إلى جدرانها طولاً وعرضاً، وتتوسّطها طاولة خشبية قصيرة القوام، عليها قارورتا ماء وكوبان من زجاج، وبعض أوراق الجرائد المبعثرة، على أربعة كراسي تجلس عجوز وفتاة في مثل سّي، وعلى المقعدين الآخرين، يجلس طفل صغير وامرأة بدينة تسند رأسها على الجدار مطبقة عينيها، لاحقتنا أعين النسوة قبل وبعد أن سلّمت عليهن ماما بختة، جلست ورأسي على كتفها وأصابع يدي تشبك أصابع يدها بقوة، تشخص الأعين نحونا بغرابة، تترصد كلّ حركة منّا، ساد الصمت وأنا أرخي جسدي وأغفو، توقظني نقاشات وضحكات بين ماما بختة والعجوز وابنتها، أتطلّع ناحيتهن بدهشة، تالفن سريعاً، وكأنّهن يعرفن بعضهن منذ زمن، كان مكان المرأة البدينة شاعراً، قالت ماما بختة وهي تتطلّع ناحيتي:

- قُرب دخولك مكتب الطّبيب، ساكون هنا بانتظارك، السيّدة التي كانت تقابلك تتابع مرضها منذ فترة في هذه العيادة، نقول حمايتها إنّها تتماثل للشّفاء سريعاً.

بعد ما يقارب نصف ساعة نودي على اسمي، ارتجفت في مكاني وأنا أعانق
ماما بختة، ربتت السيّدة التي كانت في استقبالنا على كفتي بجنوّ وهي
تهمس في أذني.

- أنا معك يا صبرينة، أكيد أنت هنا لأجل أن تكوني أفضل حالاً.

نزعنتي بلطف من جسد ماما بختة، سرنا في رواق قصير، ثم ولجنا مكتب
الطبيب، كان يقف مباشرة خلف الباب، شاب أسمر بين الطول وضعيف
البنية، على عينيه نظارة سميكة، يرتدي مئزرا ناصع البياض يصل إلى
ركبتيه، بلباقة زائدة عن اللزوم رفع كفتيه مرحباً، ثم أخذ يسحب مني قلقي
بألفاظ مجزولة ومتقنة تبعث على الراحة، بينما السيّدة خلفي تبتسم برقة
وهي تفرك يديها، لكن سرعان ما انصرفت وأطبقت الباب خلفها، اقتعدت
كرسيًا في مواجهة مكتب خشبيّ، فيما استدار الطبيب متوجّهاً إلى كرسيّ
مقابل ويداه وشفته تغدق عليّ بكلام دافئ، رفع النظارة عن عينيه ووضعها
جانبا على مكتبه، ثم شرع يتطلّع في ملامحي وعلى وجهه ابتسامة لم تتغيّر،
تهدّد ثم قال برفق:

- خلاص هذا كلّ العلاج، هيا يمكن أن ننصرف.

تقلّصت ملامحه عن ضحكة أبانت بياض أسنانه، ووجدتني أبادله

الضحك بشعور غريب، ثم رفع يديه عالياً وقال بثقة:

- هاه صبرينة تضحك الآن، ألم أقل لك أننا أنهبنا العلاج.

فقهه ففقهته من بعده، في حين أدار وجهه وأخذ يدعك شفتيه، ضرب الباب بعنف من خلفنا، استدرت صارخة، بينما قام الطبيب من مكانه مرعوباً، قفز صوب الباب حيث سيّدة الاستقبال تستصرخه، كنت أدفن وجهي بين كفي وأنا أسمع صوت الطبيب يرتفع مهدّأ.

- خلاص... خلاص اهدأ يا منور، عادي، دعيه معي، كلّ شيء بخير... أهدأ فقط ... اهدأ.

في عجالة طلب منّي الطبيب بظرافة ولطف السير رفقته، أخذ يكرّر اعتذاره حتّى أشفقت على حاله، أجلسني بزاوية تنأى عن مكتبه، ناولني كأس ماء ثم قال متودّداً.

- هذا مريض قديم، لا تقلقي، بحاجة أن أكلمه للحظة وسينسحب.

كنت أراقب حوارهما وهما واقفان، هالني منظر العجوز وهيئته الرتّة، حركاته غريبة، ينظر حوله مرعوباً، وكأنّه فازّ من حرب، أو ينتظر هجوماً مباغتاً، ظلّ الطبيب يسمح على جبينه ثمّ يشدّ على ذراعيه مهدّأ حركاته، بقي العجوز من حين إلى آخر يضرب صدره ويفغر فاه إلى

الأعلى، ثمّ وقد انتبه إلى وجودي، خطف نظرة ناحيتي، مسح بصره فضاء الغرفة في هدوء مريب، ثمّ وجهه سبّابته ناحيتي وهو يهزّ رأسه ويجرّك شفّتيه بكلام لم أتبيّنه، انكشيت بمكاني وحشرت وجهي بين كفي وأنا أباعد بين أناملي وأتفقّد الوضع بقلق، كان العجوز يجلس مضطربا على الكرسيّ، بينما ينحني الطّبيب نحوه وهو يشدّ على يديه، يكلمه هامسا ومعاندا حركة رأسه، أراقبه، ومن تحت قبّعته البالية عين تحاول أن تترصدني فيحجبها رأس الطّبيب.

أحمد

(محاولة فاشلة للتغيير)

وصلت إلى مرحلة معقّدة جدًّا، قد تكون أفضل العبارات المناسبة لها: مرحلة العدم، مرحلة اللاوجود، مرحلة اللاإنسانية، أن تصير مجرد قطعة، أن تستوحش ردًّا من إنسان يعيرك ربع قيمة، أن يحبّك أيّ شيء له روح، أن تحسّ فقط أنّك آدمي، ثمّ كأني مفقود عن عالمي الحقيقي، جرّبت كم مرّة المشي بالشوارع، فقط حتّى ألقى التّحيّة على الواقفين والقاعدين، ثمّ أجد بعضًا من قيمتي الإنسانية في ردّهم على تحيّتي، أجد في ذلك متعة لا نظير لها، أحاول اصطياد انتباه الأعين إليّ، أوزّع الابتسامات هنا وهناك، وأقف منتظرًا ردًّا، كان يرضيني أيّ ردّ، منهم من يعيد إليّ ابتسامتي بطيبة خاطر، منهم من يتجاهلني، ومنهم من ينظر إليّ باستغراب ثمّ ينصرف، ومنهم من يتوجّس من ابتسامتي وينعتني بأقبح الأوصاف مهدّدًا ومتنوعّدًا، هل يلزمني طيب نفسيّ؟ هكذا قال لي شيخ يمثل سنّ الحاج منور وقامته، غير أنّه أكثر بدانة منه وعلى وجهه المدور ذي اللّحية البيضاء المهذبة تقرأ وقارا، يرفل في جلباب أسود ويعتمر عمامة، أخذت القطعتان على جسده لونا أسودا موحدًا يبرز بشكل ملفت لون بشرته البيضاء،

وقف كجبل بيني وبين جسد شاب هائج حاول البطش بي، كان الشاب خاطفا كالبرق، يسرع ناحيتي وهو يطوي كمّ قبيصه على ذراعه ويرفع قبضته، ثمّ تسمّر بمكانه أمام جسد الشيخ وعيناه تقدحان بالشرر، أنزل قبضته وطفق يعدّل مزاجه ويهدّب ألفاظه، وتابع يفسّر للشيخ سبب فورانه.

- هذا المعتوه يتسم ناحيتي بإيحاء مشبوه ومستفزّ.

ثمّ رحت أقسم لهما أنّي لا أنوي ذرّة شرّ، كلّ ما في الأمر أنّ هذا هو طبعي، وحين اطمأنّ الشيخ إلى هدوء الشاب وانسحابه، اقترب منّي وقال ناصحا.

- الأذهان تمشي بوساوسها يا رجل، إن كانت هذه خلقة فيك، حاول أنّ تقصد طبيبا نفسيا يمكنه تغيير طبعك هذا، وإلا فابتسم للأشجار والأشجار والحيوانات، للأشياء التي لا تؤذيك ولا تنتبه إلى سداجتك، حتّى ترح عافيتك، احذر أنّ تبتمس في وجه إنسان لا صلة لك به.

وجدت في كلام الشيخ الكثير من الصدق، وهو ينصرف ويشيعني بنظرة واثقة، كأنّه ملاك أرسل إليّ حتّى يرُدني إلى حقيقتي، لم أصادف من قبل شخصا كمثلَه يدفع عنيّ شرّا ثمّ ينصحني، سرت خلفه،

تمنيت لو أتودد إليه بالبقاء أكبر وقت معي، أن ألتقي به كل يوم، أن أكسب لحظات معه كما كان الحال مع عمي الزافينو، عبر طريق مستقيم، كنت أراقبه، سهام نظري موجهة نحوه، أخطى الأجساد والسيارات، تبتلعه الحشود، أفتش عن سواد عمامته، ألتقطه بصعوبة، علامات سواد كثيرة ظهرت شئت انتباهي، خلته انعطف يمينا أو أتم طريقه مباشرة، التبس علي الأمر فوقفت حائرا أجول ببصري بين الاتجاهات الأربع، أمسح وجوه المارة وألتقط كل علامة تحمل سوادا، تلاشى الشيخ، اختفى كما اختفت كل الأشياء الجميلة من حياتي، قفلت عائدا وأنا أبتسم للمارة، ثم عبست متذكرا نصيحته.

نظرت صوب الطريق الطويل، ثم أملت رأسي يمينا وإلى الأعلى، هناك لافتة مدون عليها "عيادة الدكتور لطفي - طبيب ومعالج نفسي"، بخلقت في العبارة ثم استدرت وقد خيل إلي أنني اقتدت من قبل ذلك الشيخ إلى هذا الشارع حتى أجدني أمام طبيب نفسي، وقفت أمام باب العيادة، كنت أودّ الدخول، قلت في قرارة نفسي، أدخل وأسأل، مجرد سؤال عن حالي النفسية المتعبة، ترددت، مشيت بثقل، ثم أعدت الالتفات خلفي، هل أدخل؟ أتاني ردّ سريع من أعماقي، أنت لا هيئة جيدة ولا مال، ماذا ستمنح الطبيب مقابل العلاج؟ هل ترى أن

ابتسامتك السخيفة كافية، هرولت مبتعدا عن المكان عائدا إلى غرفتي، يوم متعب، لكن لا بأس مادام قد تخلّته أحداث جديدة، فتحت باب غرفتي، وقفت مشدوها، هناك حمامة رابضة على القفص، دنوت بجذر شديد، تراقبني دون حركة، ضممتها بين كفيّ مصدوما من هدوئها، انتهت إلى قصاصة ورق عالقة بساقها اليمنى، وبالساق اليسرى هناك حلقة صفراء مكتوب عليها رقم واحد، فككت الخيط واضعا الحمامة داخل القفص، فردت القصاصة، بخطّ سميك أعرف صاحبه، مدوّن عبارة "الحاج منور بانتظارك أعلى المقبرة يا أحمد، لا تبطئ"....

الحاج منور

(أمل أخير قبل التحوّل)

كنت أدرك أنّها آخر فرصة بالنسبة لي تجاه هذا الشرّ الذي يسكن جسدي، وصلنا إلى نقطة صدام لا يمكن الرجوع عنها، أفقت على لسعات الشّمس الحارقة، وأنا ملقى على الأرض، لا يتناهى إلى سمعي غير طنين الدّباب وهو يسرح على وجهي ويستمتع برطوبة في المفغور ويلدغ أي طرف شاء دونما يد تنشّه، أفقت وكأنا أوتاد موزّعة على جسدي تثبتني بالأرض وتغور في عمقها، كنت أبكي بحرقة، ويصدري أزيز كأزيز المرجل، من غير قدرة على تحريك مفاصلي، أو حتّى عضلة وجهي، أستجدي أختي نزيهة أن ترفع عنيّ هذا القيد، كانت أعظم أمنية أن أحضن قبرها كعادتي وأبكي بحرقة إلى أن أعفو، نفسي ضئيل جدا، تتردّد حشيرة بجلقي، أحسّ أنّ روعي تنسلّ من جسدي المعبّد، كأنتي احتضر ولا همس حبيب أستشعره بجانبني، لا أحد يبكيني أو يقبل جيني، ليس من حولي غير الفراغ وطنين الحشرات وغرغرة الحمام، يأتيني الصّوت واخزا صدري.

- أنا معك يا منور.

يزيدني الصّوت انكسارا، أردّ بقهر.

- بعض الوقت فقط...

بصوت عابث ثمّ مجلجل يردّ:

- تغلبك أتفه الحشرات، ثمّ تستنجد بالموتى، وأنت تملك أعظم قوّة داخلك، لن تموت، ولا يمكنك الوقوف مجدداً إلاّ بإشارة مّيّ يا منور.

أحاول أن أززع جسدي، أن أختبر أيّ عضو منه، لكنني طاقة مبدّدة ونفس خائر، وكأني أدفع جبلا صلدا.

يتملّكني اليأس فأقول بخنوع واستسلام:

- أنت الغالب وأنا تحت سلطتك، فقط أمهلني ساعات، أنزل المدينة ولك مّيّ بعدها ما أردت.

أحسّ بارتخاء جسدي ثمّ تتملّ بكامل أطرافي، باغتني الصّوت وهو يهمس بثقة:

- ما دمت قد استجبت، فلن أتعب جسدي منذ اللحظة، تودّ أن تزور صديقك لطفي، وأنا أمنحك ذلك دون أدنى جهد.

كأنّي طرت مع السحاب، لا أدري كيف وأيّ قوّة عجيبة هذه، من ضعف تامّ إلى قدرة عظيمة، في لحظة... بل في لمح البصر وجدّني عند باب العيادة أندفع بقوة إلى مكتب الطّيب، وقفت السيّدة في مكتب الاستقبال مذهولة وهي تشاهد سرعتي والقوّة العجيبة التي تسكنني، ولجت المكتب وقفزت بأعجوبة نحو جسد الطّيب، كان يقابل إحدى مرضاه، اعتذرت فأخّرها وأقعدني كرسيًا، قلت وأنا منتشيا بالقوّة الرّهيبية التي حرّكتني نحوه:

- قد تصدّق الآن يا صديقي وأنا أقف أمامك وقد كنت قبل ثوان بالجبل، كأنّ الأرض طويت، ثمّ ما كان عليّ إلّا أن أرمي خطوة واحدة نحو باب عيادتك.

كنت أكلمه بثقة تامّة، غير أنّه قابلني باستخفاف وهو يمسح على وجهي العرق وينفض الغبار عن سترتي، وقال وعيناه تنحصران في شفقة:

- هوّن عليك يا صديقي، أنت معي الآن، اهدأ... اهدأ أرجوك، ملامحك تغيّرت كثيرا عن المرّة الماضية، يبدو أنّ المرض كان حاسما معك هذه المرّة...

قاطعته وأنا أقسم له أنني ما مشيت خطوة واحدة، وأنتي طرت نحوه بقدرة هائلة:

زَمَّ شفّتيه، ثمّ قال وهو يمدّني بكأس ماء:

- دع أنفاسك اللاهثة تهدأ، أرح جسدك، سنتكلم بمجرد أن يزول تعبك، ولا أظنّ أنّك كنت تقصد المجيء بقدمين حافيين، وبهذه الملابس الرثة، ستكون أفضل يا منور فقط بعض الصبر.

انتبهت في لحظة أنني لست صاحب القوّة العجيبة إنّما مصدرها هذا الشيء الذي يسكن أحشائي، حاولت القيام من مكاني وأنا أشدّ على قميصه، ثمّ صرخت باكيًا ومتوسلاً:

- أرجوك يا صديقي أنت أُملي الأخير، هذا الشيء الذي يسكن داخلي سيهلكني، هذه آخر فرصة بعدها لن أتأدّى أنا فقط، بل كلّ المدينة سيصيبها الخراب.

كنت أمثّل له بذراعين ممتدّتين كيف سيسيطر هذا الكائن الذي بداخلي على المدينة بعدما تمكّن من جسدي، وإذ بي أرمق تلك الفتاة وهي في أقصى زاوية تتابعني بخوف وحذر، انتبهت إلى أنني رأيتها من قبل،

بالضبط أعلى المقبرة، وكيف خلّفت وراءها سلسلتها، أشرت نحوها وأنا
بصدد شرح الكثير... قلت بدهشة:

- هاه... هذه الفتاة دخلت في يوم ماض المقبرة، أنا أعرفها، يمكنك سؤالها
إذا ضيّعت سلسلتها هناك، ثم أتى من بعدها...

وضع الطّبيب كفه على فمي كما أنفاسي، أخذ بقبضتي ناحيته
واستدار وجسده يحول بيني وبين الفتاة، ثم قال بصرامة:

- يكفي يا منور، دعني أخاطب الآن صديقي الدكتور منور، أنت مصاب
بمرض نفسيّ وستعالج، امنحني فرصة للحديث ولنتكلّم بهدوء، ما تعيشه
هو ذهان وهلوسة خارج مجال جسمك، وقد تصير هلوسة حشويّة،
مشاعر وأحاسيس وصور ومعتقدات، لا يمكن لغيرك أن ينتبه لها، لا
وجود لكائن داخلك، ولا يمكن بأيّ حال تصديق هذا، أنت كائن واحد
فقط، كأني بشريّ بجسد وروح، ولن تخرج عن هذه المعادلة الإلهيّة، اترك
لي وقتاً وسأشخصّ حالتك بشكل دقيق، ومن ثمّة ستعجبك النتائج، دع
أمر شفائك تحت مسؤوليّتي يا منور.

"أصعب معركة في الحياة، عندما يدفعك الناس إلى أن
تكون شخصا آخر"

وليام شكسبير

الفصل الثالث

الضّباع

لم يبق الكثير على انتفاضة المهّمّشين، القوى تنسلّ في صمت من المركز وتطير إلى الهامش، تنفجر حدود الشيء حينما يُضغَط محيطه، ويصبح غير قادر على احتواء نقطة جديدة، نفس جديد، قوة جديدة...

رزقي

(زيارة غير متوقّعة)

بدأت أفلت من مجالسة صديقي مراد، شوائب كثيرة أصابت صداقتنا، بتّ لا أحتمل مطلقاً مزاحه ولا مزاجه الطّافح فوق أفكاري، مجرد ذكر كلمة عن أحداث المقبرة يثيرني ويؤجّج غضبي، وكأنّ تلك الأحداث أصبحت شيئاً من تاريخي وكرامتي، مضى أسبوع على آخر لقاء بيننا وعلى صحكاته المستفزة، من الصّعب تصديق ذلك، من الصّعب أن يمرّ يوم دونما وجه مراد وصوته، أكيد أنّه فنّش عني طويلاً، وحاول الاتّصال مرارا، وهو الآن قلق من غيابي كقلق نانا من انقطاع زياراتي لها أو الاتّصال بها، لكنّها نتف من الحياة، قد لا يقننع الواحد فيها إلّا بوحده، يستغني فيها عن وجود الخلق من حوله، ويجد في عزله لذّة لا يمكن أن يدركها الآخرون، أمسح المكان من حولي وأعود أحدث نفسي بكثير من الحسرة، وأيّ متعة تجدها يا رزقي في هذا الجوّ السّوداويّ الخالي من الحياة؟

كان فراري من مراد حلاً منطقيّاً، حتّى لا تنقلب الأمور إلى عداوة حقيقية، وأنا على هذه الحال كنت بأشدّ الحاجة إليه، كما كنت في

المقابل بحاجة إلى ترك مسافة بيننا، هكذا الابتعاد بمحبة يترك شعاعا خافتا لأمل صداقتنا، حالي هذه مهما تأزمت قد أجد دليلا يفكّ عقدها ويرفعني ناحية الصّوء، لكنني أودّ بالحاح أن يكون ذلك علاجا ذاتيا دونما توجيه من أحد، وأنا ساه بحديث متأزم مع نفسي، قفزت من مكاني على وقع قرع على الباب، كان قرعا هادئا أول الأمر لم أعره اهتماما، أولت ذلك إلى حدث خارجي عابر، قد يكون توهمًا أو اصطداما دون قصد بباب شقّي، كيف لا وأنا لم أشهد طارقا من قبل يتفقّدي حيث أنا، تكرر الطّرق مجدّدا، لكن هذه المرّة بجدة أكبر، ثمّ جاء الصّوت متبوعا، تلملت بمكاني مصدوما وأنا أزدرد ربيقي وأتطلّع إلى الجدران المتسخة وإلى الغرفة ككلّ وهي تتشّح بفوضى عارمة.

اقتربت من الباب بخطى حذرة، جاء الصّوت مجدّدا:

- افتح يا رزقي، الصّوء داخل الغرفة مفتوح وظاهر أسفل الباب، بمعنى أنّك بالغرفة، افتح يا صديقي.

كان مراد... لم أجد حلاّ غير مواجهته، أدت مفتاح الباب بعد أن مسحت على وجهي وخلخلت أصابعي بشعر رأسي ونفضت على ملابسي، محاولا تعديل هيئتي، لكن لا أعتقد أن شيئا قد تغيّر، من خلف الباب

وقف مراد يحدّق في ملامحي دون أن يطرف، لَفَّ كَفَّهُ على معصمي وسحبني داخل الغرفة، ثمّ أقعدني على السرير وهو يجول بنظره على محيط الغرفة يتمم محوقلا ومستغفرا، كان ذعره واضحا، يتطلّع ناحية الباب ثمّ ناحيتي كأنّه يقرأ المسافة التي تمكّته من الفرار بأيّ لحظة خارج الغرفة، يرفد من الأرض ورقة يقلّبها بين ناظريه، يتحسّس الشقوق على الطاولة، يتفقد الخطوط على الجدران، ثمّ يكلمني بريق ناشف وصوت متوتّر:

- رزقي، هل تتذكّرني؟ أنا مراد صديقك...

ابتسمت متأمّلا صوته المرتجف، ثمّ أجبته ملاطفا:

- أكيد أعرفك والله، تحسبني جنت.

بقي يجوب بكفّ ممدودة فراغ الغرفة صامتا، ثمّ يدفع كومة الأوراق إلى زاوية، كنت أتابع تردّده، يقفز ناحية النافذة، يتطلّع خارجها ثمّ يعود بنظرة حائرة، أثناء ذلك سحب الهاتف من جيبه، نقر مرارا على شاشته وأنا أرى ارتياحا على سحنته، رفعه ناحية أذنه وقد أدار بدنه متحرّكا جهة النافذة

- ألو صديقي لطفي.. بحاجتك على الفور، لا أرجوك الآن، الأمر طارئ لا يحتمل تأجيلا...، نعم شكرا صديقي... حي 200 مسكن، العمارة A، رقم

الباب 19... نعم أسرع أرجوك.. في انتظارك، مع السّلامة.

صبرينة

(صديقة جديدة)

وكأنه كان مجبرا على تهدئته، أكثر من ثلاث ساعات والطبيب يجاور العجوز، وأنا أتابعهما في صمت بعينين ذابلتين، غفوت كم مرّة ثم عدت لمراقبتها، يغيّر الطبيب في كل مرّة مكانه ووضعية جلوسه وطريقة كلامه، أراه بجانبه يشدّ يديه ويكلّمه ببطء، ثم مقابلا له يصغي إليه في انتباه، قلت محدّثة نفسي وقد اعتراني ملل من الانتظار: إن كان يأخذ كلّ هذا الوقت مع مريض قديم خلال جلسة واحدة، فكيف سيكون الأمر بالنسبة لمريض جديد مثلي؟

غفوت مجدداً ثم غرقت في أحلام كثيرة متداخلة ومختلطة، فجأة أفقت على شيء ينحسر بين قدي، انتفضت من مكاني مرعوبة، فرجت بينها، فإذا هي حمامة بيضاء تفرد جناحها تحاول السير، تتخبّط كالذبيحة، أحنيت جذعي ولملمتها بين كفيّ ثم رفعتها إلى حجري، وطفقت أمسد على ريشها إلى أن هدأت، تفقّدت محيط المكتب، كلّ النوافذ مغلقة، من أين سقطت هذه الحمامة وأي شيء أصاب جسدها؟ تابعت أدقق بالأرضية والجدران وإلى ما يؤثث مكتب الطبيب، ثم قبضت على علامتين من

المفترض أنّها دليل قاطع على مكان دخول الحمامة، هناك ريش على قبعة العجوز، وريش آخر متناثر على باب المكتب، الأمر صار واضحاً الآن، الحمامة ولجت المكتب مع اندفاع هذا العجوز، ثم ارتطمت بهيكل الباب وسقطت وكسر جناحها، طربت وترنّحت في سرور على حل لغز الحمامة، كم من الوقت مضى؟ أظنني كسرت الملل بوقت لا بأس به مع لغز هذه الحمامة، كنت أتابعهما، طال الصمت بينهما، قام الطّيب من مكانه ثم توجه ناحية العجوز، يبدو من خلال وجهيها المكفهريين، أنّ نتيجة طيبة لهذه الجلسة، خلع الطّيب نظّارته وأخذ يدعك عينيه في تأقّف، بينما ينهض العجوز من مكانه متمماً يضرب فخذه ويمهّز رأسه في استسلام، سار الاثنان ببطء ناحية الباب، عاد الطّيب إلى كرسيه يجفّف عرق جبينه بمنديل ورقيّ بعد أنّ شيع العجوز خارجاً وصفق الباب، خلت أنّه نسي وجودي في هذا الزّكن بعدما أخذ وقتنا جالساً على مكتبه، يتأمّل الكرسيّ الفارغ الذي كان يجلس عليه العجوز، نحنحت متّبهة على وجودي، أدار حدقتي عينيه ناحيتي مبتسماً من غير أن يحرك رأسه، على يمينه سحب سجلاً وغرق في التّدوين عليه، يرفع رأسه تارة مستذكراً، ثم يتابع الكتابة، أخذ وقتنا في ذلك، ثمّ قام ساحبا السجلّ إلى طرف المكتب، أشار بلطف إلى الكرسيّ الذي يقابله، قمت ومشيت بتأنّ وبين كفيّ الحمامة، كانت

نظرته الحائرة ملتصقة بالحمامة، ظلّ حاجباه مرفوعين في زهول إلى أن جلست، مدّ يده يربّت على جسدها، ثمّ أطال ابتسامته وقال بدهشة:
- من أين لك بهذه الحمامة؟ أظنّك دخلت المكتب من دونها.

رحت أشرح كيف وصلت الحمامة إليّ، بينما كان قد فضّض مناديل ورقية أمامه، مدّ كفيه مستقبلا الحمامة، ثمّ نقلها برفق فوق المناديل، وقال يخاطبها مازحا:

- ابقى هنا، قد كسبتِ صديقةً وحياةً جديدةً، ستداوي جناحك، بعدها حلّقي بحريةً كيفما أردت.

ظلّ الطّيب يراقب ابتسامتي إلى غاية انطفائها، ثمّ سرح بعيدا وعاد بنظرة واثقة، تفرّس مليا بملامي وقال بهدوء.
- ما مشكلتك يا صبرينة؟

انعدت لساني وأنا أقلّب عينيّ يمينا وشمالا وأدعك أصابعي باضطراب، لم أنبس بنت شفة، ولم يكن بمقدوري صياغة كلمة واحدة، ما مشكلتي أنا مثلا؟ قام الطّيب وخطا ناحيتي، حيث جلس قبالي وقال باطمئنان:

- لي معرفة بك من خلال السيدة بختة، مشكلتك بسيطة جدًا، فقط كل ما عليك أن تضعي حاجزا بين ماضيك وحاضرك.

تكلم الطيب طويلا، يعرفني بنفسى كأنتى أنا من يتكلم، كان يتعين على أن أمده بأمور لم أطلع عليها ماما بختة، قال أخيرا أنتى مصابة باضطراب نفسى، وسيكون العلاج بجلسات أسبوعية، لكن خلال حديثي قرأت انفعالا منه، أو ما يشبه الصدمة، كان ذلك بمجرد حديثي عن المقبرة وضياع السلسلة.

أحمد

(آخر ورقة العيها)

قرأت القصاصة عشرّ مرات، مئة مرة، بل ألفا... لا أدري كم مرّة، عبارة مفهومة وواضحة، لكن أيّ لغز خلفها؟ على ماذا يودّ أن يطلعتني الحاج منور، يوم غير طبيعيّ، بعد سنوات من الفراغ، تندافع خلال يوم واحد مجموعة من الأحداث الغريبة؟ ما الذي دفعه إلى مراسلتي عبر طائر؟، وكيف درّبه على حمل ورقة دونما خطأ بعنوان غرفتي؟ أطبقت الورقة، رحت أستجدي ذاكرتي كي تمدّني بكلّ المعلومات التي كسبتها من الحاج منور حول الحمام، مكثت وقتنا أرّتب أفكارني وعينايا عالقتان على الحمامة الهادئة بمكانها، ثمّ..... ثمّ انتبهت والحمامة ترفع جناحها الأيمن كاشفة عن مسحة سوداء تحته، قفزت من مكاني محتارا وقبضتي عليها، رفعتها ناحيتي ورحت أقلّبها ريشة ريشة، أرخيت قبضتي، تحرّكت على فخذي، ثمّ أطلقت جناحها للريّح من خلال التّافذة، حلّقت بعيدا وقد خلّفتني ساهما أردّد:

- هي نفسها... الحمامة ذاتها التي منحني إيها قبل أشهر.

ألقيت بدني على السرير ورحت أراجع كل ما تعلق بالعجوز منذ

أن عرفته، كان قد حدّثني مرارا عن سلالات الحمام، أقرها إلى قلبه الرّافينو والقرقيرو والزّاجل.... انتفضت من مكاني وقفزت ناحية النّافذة من غير وعي مئّي، قد تكون وصلت إليه، كانت واحدة من بين الحمامات الثلاثة، وكانت هي الحمامة الوحيدة النّاجية، بعد أن قضى المرض على الأولى، ثمّ الحمامة الثانية التي تمكّن القطّ منها، لكن كيف رُتّب الأمر هكذا، أن تمنح لي حمامة، ثمّ تفرّ مئّي لتعود بعد مدّة برسالة من مالكةها الأولى، أي خطّة رسمها الحاج منور؟

لا مطلقا عجوز خرف مثله فقد كثيرا من قدراته العقليّة والجسدية، لا أظنه يستطيع حلّ معادلة رياضيّة بسيطة، فما بالك بالتّخطيط لأمر كهذا، كلّ ما في الأمر أنها محض مصادفة، وما يجب عليّ الآن فعله، هو أن آخذ الأمر ببساطة دونما ارتباك أو تأويلات تؤزّم حاليّ النفسية أكثر، قد يكون الحاج منور بحاجة إلى وجودي بجانبه، لا يمكن الخروج عن هذا الاحتمال، هو يدرك أنّني شاب وحيد وعاجز، ولا عمل أتقوت منه، ثمّ لا يمكن أن يجد شريكا يأمنه على برج الحمام غيري، وهو في ضعفه بحاجة إلى من يعينه على مهامه المتعبة، تقلّبت بسريري متحسّرا، تمثّيت أن أقابل ذلك الشّيخ مجدّدا وأطلب رأيه فيما حصل وأيّ اقتراح يراه مناسبا، في تلك اللّحظة برقت فكرة بذهني، الوحيد الذي يمكن أن ينصت إليّ في

انتباه وقد أجد منه رأيا سديدا هو الطَّيِّب النَّفْسِي الَّذِي وَقَفَتْ سَاعَتَهَا
عند باب عيادته، ورقة أخيرة سألعبها قبل الاستجابة لطلب عمِّي الِرافينو.
سرت مستعجلا نحو العيادة ويدي الدَّنانير المتبقيَّة والقصاصه،
طوال الطريق كنت أردِّد ما يجب أن أقوله أوَّل الأمر للطَّيِّب:

- هذا كلُّ ما أملك بضعة دنانير، إن شئت قبلتها مقابل العلاج، وإلاَّ
يمكنك ردِّي، شاب معدوم مثلي مصاب بحالة نفسيَّة معقَّدة ويحتاج إلى
علاج ضروريِّ قبل أن تتفاقم حالته .

لم يعترض الطَّيِّب، عكس ما كنت متخوِّفا منه تماما، أمرني بكثير
من اللباقة أن أعيد الدَّنانير إلى جيبي، ثمَّ سجلَّ معلوماتي الخاصَّة، وأخذ
يسألني وينصت إليَّ في انتباه، لكن وأنا ماض في الكلام لاحظت تغيِّرا
مفاجئا على ملامحه وتصرفاته، ما اضطرني إلى التوقُّف عدَّة لحظات، قبل
أن يستفيق ويطلب منِّي المتابعة، هل يعتبر هذا أنني أملك طاقة سلبية
يمكنها التأثير على طبيب نفسيِّ؟ رحت أغيِّر الموضوع وأطلب متوسِّلا أن
يعذرني على تعكير مزاجه، طلبت منه أن يأذن لي بالمغادرة، لكنَّه رفض
وراح يسألني بجديَّة عن الحاج منوَّر وتفاصيل علاقتي به، وعن المقبرة
والحمام، عن أمور جانبية لا تمتُّ لحالي بصله، تعجَّبت وطفقت أتمللم
بمقعدي متوجِّسا من حالة الطَّيِّب الغريبة، وقلت في نفسي بحزم:

- آخر ورقة ألعابها كانت خاسرة.

قام الطّبيب وراح يَلْف مكتبه كالمجنون، يخطّ بدفتره ويفرك يديه،
ثمّ يلقي ناحيتي أسئلة غريبة وكأنيّ بمكتب تحقيق، بعد أكثر من أربع
ساعات أفرغت فيها كلّ حياتي السّوداوية أمام مكتب الطّبيب، مسح على
رأسي ثمّ طلب منّي يالحاح أن أعود في اليوم التالي.

"في الوقت الذي يُغلق فيه باب يُفتح باب آخر، الخطأ هو أن تظلّ

ناظراً للباب المغلق، ولا تتبته للباب المفتوح"

هيلين كيلر

رزقي

(صدمة الطّيب)

بعد وقت وجيز كان الطّيب أمام الغرفة، أسمع أطيط الباب وهو يفتح على مهمل، بينما أسرع مراد ناحيته وأقبل يشير إليّ، وقف الطّيب بمركز الغرفة وأخذ يدور حول نفسه يفحص كلّ موضع من الغرف، نظر ناحية مراد بوجه متغصّن الجبهة وعينين شاخصتين تبتئان عن دهشة واضحة، شرع يقلّب عينيه بيني وبين مراد، ثمّ تقدّم ناحيتي وأحني جذعه ومدّ يده مصالفاً، مسح على رأسي وقال بتحنان:

- لكلّ مشكلة حلّ يا رزقي، لك صديق يجبّك، كلّ أعذاري لم تفد في دفع إصراره، هناك مرضى بالعيادة في انتظاري، لكنّي جئتك عن طيب خاطر، مفاهيم كثيرة تزوّدنا بها الحياة، لكن ليس كلّها في صالحنا، لذلك لا يمكن أن نغلبها فرادى، إنما نتعاون عليها بوجود قريب أو صديق، بحول الله سيزول مرضك بزوال وحدتك ووجود صديقك مراد بجانبك.

كان الطّيب قد أنهى كلامه، ثمّ عكس نظره يودّ مخاطبة مراد، لكنّ شيئاً ما بالأرضيّة شدّ انتباهه، تردّدت شفتاه عن الحديث، وانحني رافعا ورقة وألصقها بعينه، قرن حاجبيه وأخذ يدقق وقد تشكلت سحابة

من الحزن بين عينيه، ازدرد ريقه وارتفع نفسه وهو يتعرق بشدة، وكأنه لتوه فرغ من ركض طويل، وقف مراد في الركن متحجرا حائرا ماذا يصنع، يمد يديه في ذعر ويحرك شفثيه من غير أن يفه، ألقى الطبيب قبالي، تفحصني مليا وقال مرتبكا:

- هل تعرف الحاج منور، صبرينة أو أو شاب يدعى أحمد.

هزرت رأسي بالتقي وأنا متعجب من الحالة العجيبة التي آل إليها الطبيب، من شخص منبسط الملامح وهادئ، إلى شخص آخر منفعل غليظ الطبع يرميني بنظرات حادة، هزرت رأسي بالتقي مجددا وأنا أرى نظرتيه لا تزال عالقة بلامحي، فجأة كثرت الطيب عن أنيابه وهو يحدجني بنظرة مرتاعة، رفع أصابع يديه نحوي، التي بدت كسهام حادة خلت أنه سيغرزها بوجهي، لكنه صاح فزعا:

- أي عصابة أتم، تواطؤ صريح ضدي، كيف يحدث هذا، عقلي سيهلك.

ثم راح يغطي وجهه بكفيه ودخل في نوبة بكاء حادة، تتخللها عبارات لم أفهم القصد من ورائها:

- ذلك العجوز يقول إن كنا خرافيا يسكن داخله، وأن السلسلة ضاعت من البنت بالمقبرة، والبنت تقول أنها أضاعت السلسلة، وذلك الشاب

يقول إنّ العجوز أرسل له رسالة مع حمامة، وهذا يرسم السلسلة والمقبرة والحمام...، كلهم يقصدون نفس المكان، هل يجب أن أصدّق الآن أنّ ذلك الكائن حقيقيّ؟ أيّ جنون هذا.

وهو يتخبّط في حالته هذه، تدخّل مراد وأخذ يحضن الطّيب، ثمّ سار به إلى ركن الغرفة وصار يهدّئه ويربت على ظهره.

أخذنا وقتاً معاً يتهاوسان ويتطلّعان ناحيتي بقلق بين فينة وأخرى، كنت وقتها قد تذكّرت الهاتف المنطفيء منذ أكثر من أسبوع، شغلته بعد أن سحبتّه من درج المكتب، وضعته جانبي وأنا أتطلّع ناحيتها وقد هدأ الطّيب وعينه منشغلان بمراقبتي، لحظتها هبّت موجة رنات الرّسائل من هاتفي، رفع مراد بصره ناحيتي وقال بامتعاض:

- تلك رسائل كثيرة التي لم ترد عليها.

قام الاثنان سوياً وطفقا بمغادرة الغرفة، وبينما هما ينسحبان حتى استدار مراد ناحيتي وهمس قائلاً:

- أوصل الطّيب إلى العيادة واطمئنّ على حاله ثمّ ارجع إليّ.

مشى يسحب الباب من خلفه، ثمّ عاد يطلّ بوجهه وقال بجماس:

- أعتذر كثيراً يا رزقي، سأعود هناك أمور عظيمة لا بد أن نتكلّم عنها.

سقل الباب من خلفه وأخذت بدوري الهاتف بين يديّ ورحت أنفقده، معداد الرسائل مرتفع على الشاشة، ولجت خانة الرسائل غير المقروءة، رسائل من مراد، ثم رسائل من نبيل، بدأت يداي ترتجفان وأنا أشاهد كمّ الرسائل الواصلة من رقمه، فتحت رسالة كانت كلمات تهديد واضح أن أخلي الشقة أو أن أدفع حق الإيجار، كنت في البداية متيقّناً أن نبيل قد أخطأ، وأنّ الرسالة كان سيرسلها إلى شخص غيري، ثمّ انتهت إلى أنّي بدأت برسالته الأخيرة، مررت سريعاً إلى رسالة أخرى، رسالة يوجّني فيها بشدّة ويصفني بأقذر العبارات وأنّني عديم الضمير والتّربية ولا خير يرجى منّي، ثمّ أردف وكأنّه يكشفني بسرّ ما، كيف لكلّ هذه السّنوات وأناّ رحمها الله تدفع ثمن الإيجار وتدسّ في جيبك أوراقاً نقدية لا علم لنا بها ؟ أعدت قراءة رسالته هذه بمزيد من التأنّي وأحاول أن أستوعب عبارة قالها وقعت على قلبي مثل صاعقة، أناّ رحمها الله!، أيّ ترّهة هذه، ظلّت يداي ترتجفان وأناّ أنتقل إلى الرّسالة الأولى، فتحتها، كانت العبارة التي قرأت مثل صعقة كهربائية عنيفة ارتعدت لها كامل مفاصلي، ثمّ ألقتني على الأرض أتخبّط من هول الصّدمة وأناّ أصرخ وأنتحب:

- ماتت أناّ، ماتت.... رحلت عنيّ حياتي ولم أودّعها.

بينما كنت أختنق بغيظ عظيم، رحمت أستجمع شيئاً من قوّتي، حملت هاتفي متعجّلاً مخافة أن يرجع مراد، كتبت رسالة طويلة أفصل له فيها كلّ ما كان من ساعة مغادرته الغرفة إلى غاية هذه اللّحظة، ثمّ أغلقت الهاتف، وألقيت به، بكلّ ما تبقى لي من قوّة على الأرض، تناثرت أجزاءه، خطوت خارج الغرفة، ثمّ صفقت الباب من خلفي، وسرت بلا رجعة.

الطبيب لطني (انكشاف السرّ)

بدأت أسترّد شيئاً من عافيتي، أمور عديدة تغيّرت منذ أن اخترت الانعزال بعيداً عن العيادة، ما قمت به خلال هذه الفترة يعتبر خدمة كبيرة لي وللكثيرين...، أن تجمع هذا الكمّ الهائل من المعلومات عن شخصيات غامضة تسيطر عليها قوى مرضية، فهذا يعتبر أشبه بمعجزة، الأمر أخطر مما نظرنّ جميعاً، هذه خلاصة ما حدث خلال تلك الفترة المتأزّمة والعصيبة.

كان ذلك قبل أشهر عديدة، أقصد هنا منذ تلك الحادثة التي تجمّد خلالها ذهني، ولازلت أتذكّر تفاصيلها وكأني عشتها البارحة، كانت حالة أحمد مباحنة وصادمة، لكنّها لا تنقلّ تعقيداً عن حالات البقية، وأقصد هنا الحاج منور ورزقي وصبرينة، تجاوزت الصدمة بعد ما يقارب أربعة أشهر أمضيتها أتابع علاجاً نفسياً روتينياً، ثمّ بعدها أرعى نفسي بما يليق من علاج ذاتي تحت رعاية صديقي الطبيب النفسيّ الدكتور عبد الحي، وسأكشف لكم فيما بعد سرّاً أخطر عمّا عرفتموه خلال الفصول السابقة.

أخبركم الآن وإلى غاية اللحظة أن الأشخاص الأربعة مسجّلون لدى خلايا أحمزة الشرطة في خانة المفقودين، بعدما استعصى الوصول إلى أدنى

معلومة عن مكان تواجدهم، مع ذلك لا أظنّ أنّ أيّ فرد منهم بلغ ربع الجهد الذي بذلته أنا ومراد وخالتي بختة في البحث بجدّية وبرغبة ملحّة.

لم يكن الأمر في البداية بهذا الشكل التسلسل والمفهوم، إنّما كان كما من التّعقيدات، كلّما حاولت ربط فكرة بفكرة قُطع طرف أفسد كلّ شيء، ولأبدأ بالنهايات غير الواضحة، بالفصول المدوّنة، والتي جرت أثناء فترة العزلة والتّشافي. بعد فترة طويلة من الغلق، دخلت مكتب العبادة بحماس كبير وروح متجدّدة، سحبت من الدّرج الملقّات الأربعة، صفّفتها أمامي وشرعت أتفقّدها، ثم أخذت نفسا عميقا متهمّينا لعواصف قد تكون أشدّ من سابقاتها، لكن مادام كلّ شيء معلوما لديّ الآن، فأنا أكثر صلابة، سحبت ملّف صبرينة، فردته أمامي وطفقت أتفقّده بعناية، كانت صبرينة أكثر من حضر جلسات العلاج من بين المرضى الأربعة، رغما عن ذلك فهي الوحيدة التي كنت أجمل مصيرها وقتئذ، دوّنت رقمها واتّصلت مباشرة، كانت التّنتيجة كما كنت أتوقّع، الرّم مغلق، وكان يدور في ذهني هدف لا بدّ من تحقيقه بأيّ طريقة، سجّلت الرّم الثّاني والذي كان مدوّنا باسم خالتي بختة، ضغطت زرّ الاتصال وقد هيّأت نفسي لمغادرة المكتب قاصدا بيتها، لكن هذه المرّة الاتّصال كان قد جاء بنتيجة.

- ألو من معي.

- أنا الدكتور لطفي، الطيب النفسي وكنت قد...

قطع الاتصال، نظرت مستغربا إلى الهاتف، ثم كررت الاتصال مرّات عديدة، إلى أن فتحت المكالمة، ولكن بغير المتوقع، كان الصوت لرجل، صمّت، ثمّ راح يسرد ما حدث لصبرينة دون تمهّل وكأنه يقرأ من جريدة، بعدها قطع الاتصال، رميت الهاتف على سطح المكتب وأمسكت رأسي بين كفّي وأنا أشدّ رباط نفسي، وأعيد الوعد الذي يجب أن ألتزم به، أن أكمل التّحرّي عن الأشخاص الأربعة إلى النّهاية، أمسكت القلم وسحبت السّجل أمامي وشرعت أسجّل وأقرأ ما أكتب.

كما كان الأمر بالنّسبة لرزقي، حمامة تنقل قصاصات إلى صبرينة، هي بالضّبط نفس الحمامة التي رفعها من مكثبي وقد كسر جناحها، وهي التي ظلّت تحت رعايتها لفترة، ثمّ طارت وعادت إليها بقصاصة ترغّبها باللّحاق بالمقبرة، تكرر الأمر مرّات عدّة دون علم خالتي بخنة بالأمر، إلى أن اختفت.

الطبيب لطفي

(قيامه المهمشين)

كانت كلّ معلومة أفوز بها تعزّز رسم المسار لدى حالة بعينها، لا يمكن أن أنكر أنّي ساهمت في ربط فواصل كثيرة حتى يتسنى لي إتمام الفصول دون فراغات، لكنّ ما يهم هو أن الحيات الأربع رُسمت بشكل دقيق، وقد مكّني ذلك من الوصول إلى أهداف كنت أراها أوّل الأمر مستحيلة، أعود الآن إلى الحدث الآتي الذي تشكّل مؤخراً، والذي ينبئ عن كارثة عظيمة، كان أوّل الحيط شبيهة شبه مستترة عن ذهني، إذ كيف لهذه الحالات أن تنجذب نحوي أنا بالتحديد، هناك العشرات من العيادات الطّبية المنتشرة عبر الشّوارع، وبالتالي وجدتي غارقا بلغز له طرفان لا ثالث لهما، طرف مرتبط بي وطرف مرتبط بالحالات الأربع مجتمعة، لكن في الأخير لم أجد تفسيراً واضحاً يؤكد هذه الفرضية، ومنه تمّ شطب الفكرة تماماً من ذهني، هناك سرّ آخر يستوجب تفكيراً خارج حدود مكتبي والمعطيات المتحصّل عليها، حينما تبلورت فكرة لا أدري كيف سقطت من ذهني، خلال أقلّ من ساعة كانت قائمة مهمّة لأرقام أطباء نفسانيين من مناطق مختلفة أمامي، شرعت في بناء هذه الفرضية على أنّها حلّ وحيد لا

بديل له، بدأت من لحظتها تنكشف الحبايا وكأنّ زلزالاً عنيفاً ضرب اللغز فطفق يتصدّع ويخرج ما بجوفه من أسرار عظيمة ومدهشة، عشرات المرضى من مختلف المراكز تركوا فجأة جلسات العلاج وفقد التواصل معهم، كانت تُملئ عليّ تفاصيل أولئك المرضى المفقودين وكأنيّ أمام حالة من الحالات الأربع، لكن بشخصيات وأدوار مختلفة تماماً، أمّا الأمر غير المعقول والذي يعتبر فوق كلّ دهشة، أنّ كلّ حالة تجرّك بمرونة و تأنّ تامّ إلى أن توقعك بين يدي أخطر وأعقد حالة، وأقصد هنا الحاج منور، الحالة التي كانت من حظّي، وأي حظّ؟ ثمّ إذا نظرنا إلى نتيجة كلّ طبيب استطاع المضّي مع مريضه إلى مراحل متقدمة من العلاج، فإنّه يصطدم في الأخير بحلقة مفرغة ليس بعدها شيء، يدخل المريض إثرها في عزلة تامة تفضي به إلى الانسحاب من جلسات العلاج، وكأنّه لم يكن معنياً.

وقد صار أمامي مفتاح السرّ العظيم، كان يجب وضع ذلك المفتاح في قلبه المخصّص له وكشف الحقيقة الكاملة، من يقف وراء الحاج منور، وأين يختفي الآن ذلك العدد الهائل من المرضى؟ لا مجال للشكّ أو الرّيبية، الحقيقة التي لا جدال فيها تقول إنّهم يجتمعون في منطقة برج الحمام كما كان يقول الحاج منور، أو خلف تلك الطّريق المشبوهة كما قال رزقي.

ترددت كثيرا حول الطريقة التي سأسلكها ناحية المكان الملعز، كوني صاحب الفضل في كشف السرّ، لابدّ أن يسجل هذا الإنجاز المبرر باسمي، خمنت مليا في أن أسير مفردا، وأن ترى عيني الحقيقة أولا، ثم سأكشف الأمر أمام الجميع، لكن تجسيد ذلك على الواقع يعتبر مغامرة حقيقة لا نتيجة مضمونة من بعدها، أسلم فكرة هي أن أسجل القضية لدى مركز الشرطة، ثم ستُحرّك القضية، بقوة من خلفي، تُحقّق من بعدي ما كنت أطمح له، كان ذلك ما حدث بالفعل، ساعات من الكلام والتّحقيق معي ومع جبيلين أمامي من ملقّات المرضى، أمرني ضابط التّحقيق أن أنصرف وسيتمّ إعلامي ريثما تمرّ القضية على لجنة تحقيق خاصة، فضول عارم وهو اجس تاكل عقلي باستمرار، بعد أسبوعين ، ثلاثة، أربعة....، أل هذا الحد تطول دراسة قضيّة أمر طارئ؟ كلّ تلك الأدلّة المشبّعة بالحاجي تبخّرت...، الأمر طارئ جدّا يتطلّب تحركا عاجلا لا مبالاة فيه، هكذا صحت في وجه الضّابط خلال آخر زيارة، لكنني أبعدت خارج مكتبه بضربة موجعة من كفه الغليظة على جمجمتي، لحظتها وقد ارتفعت حرارة دمي، اندفعت وأنا أردّد بلسان واثق:

- أنا صاحب الفضل في كشف السرّ، وأنا من عليه أن يتحمّل عواقب ذلك.

كان بإمكانني أن أسير إلى المكان مغمض العينين، المكان مرسوم بتفاصيله الدقيقة بذهني، لكن المنطق يحتم عليّ ألا أكون في الواجهة، أنّ أتوغّل بذكاء وفي هدوء، خلف المنطقة بحركة مدروسة دون تردد أو خوف، جمع هائل، أصواتهم صافية، منضبطون في تحركهم، لا أجد في سلوك واحد منهم ما يدلّ على مرضه، هامش مفرع..... قد يعلن يوما ما قيامته على المدينة وينسكب نحوها انسكابا مرعبا... قد نشهد قيامه المهمشين.



محمد بن زكرونة
الفائز بجائزة
المجمع الجزائري للغة العربية
للسنة 2025

محمد بن زكرونة شاعر وروائي جزائري من مواليد 13 جوان 1990 ببلدية الصبحة (ولاية الشلف). تلقى تكويناً في علوم التكنولوجيا قبل أن يتخصص في الأدب العربي بجامعة أولاد فارس، حيث نال شهادة الماستر في اللسانيات. نشط في الساحة الثقافية داخل الجزائر وخارجها من خلال مشاركته في أمسيات شعرية وأدبية بتونس ومصر والأردن، كما نُشرت له مقالات في جرائد ومجلات وطنية.

أصدر عدة روايات، من بينها: "رحلة الشفاء" (2016)، "زارة الحب المقدس" (2017)، "سيغون ستارغو" (2019)، و"هجرة النار" (2021).

حاز جوائز أدبية بارزة، أبرزها جائزة رئيس الجمهورية للرواية (2016)، والجائزة الوطنية للقصة القصيرة (2018)، والجائزة المغاربية للقصة القصيرة (تونس 2024)، كما بلغ القائمة القصيرة لجائزة ناجي الكريتي للإبداع القصصي (العراق 2025).

يروى لنا الدكتور لطفي، أخصائي علم النفس العصبي، عن مرضى لم يستطع تشخيص حالتهم المرضية، معتبراً إياها حالة خارج مجال علم النفس، وكانت صدمته بالغة حينما وصل إلى نتيجة مروعة، تتمثل في أنّ الحالات تعيش تفاصيل مشتركة، رغم أنّ الصلة والقرابة تربط بينهم.

كانت الشخصية الأولى، وهي الأهم والأكثر خطورة وتعقيداً، كونها تتعلق بصديق قديم من جهة، ومن جهة أخرى ظلّ هذا الأخير يتوسّل لصديقه أن ينقذه من كائن يعيش داخله، سيدمره ويدمر الكثيرين،... لكن بقي الدكتور متمسكاً بجدود علمه، وكان ككلّ مرّة يقدّم له جلسات نفسية لم تفد حالته بشيء، إلى غاية أن تأزمت حالته واختفى..

ثم ظهرت شخصيات أخرى تعاني من أزمت نفسية معقدة، تتداخل مع تفاصيل الحالة الأولى، ممّا جعل الدكتور يصاب بصدمة عنيفة أحالته على عزلة طويلة.

وبعد أن تجاوز تلك الفترة، أخذ بدراسة كلّ حالة لوحدها، ويجمع ما استطاع من معلومات عنها، كانت الخلاصة أنّ الحالات الأربعة مسجّلة في سجلّ المفقودين لدى مراكز الشرطة، ثم وسّع تحريه أكثر ليعثر على نتائج أكثر غرابة وإبهاماً، تفيد أنّ الأمر لا يخصّ الحالات التي عولجت عنده، بل تعدّى الأمر إلى أضعاف كثيرة كانت تعالج لدى دكاترة آخرين.

ثم مهما كانت حالة الشخص فإنّه بشكل أو بآخر تتقاطع تفاصيل حياته مع الحالة الأولى، ويتابع بعدها الدكتور لطفي التشبّه بخيط اللغز إلى آخر طرف منه.

الإبداع القساووني : جانفي 2026
ISBN : 978-9969-9672-0-3



9 789969 967203



2026